شارع في كركوك

مجموعة قصصية

نصرت مردان



الكتاب : شارع في كركوك (مجموعة قصصية)

المؤلف : نصرت مردان

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠٠٨

رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٩٤١١

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 6284 - 45 - 6

الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى-المقطم-القاهرة

ت فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢)-٠١٨٨٨٩٠٠٦٥/٦٤(٠٢)

www.shams-group.net

شارع في كركوك

نصوص تغوص في أديم المسرات والمواجع

إنَّ التصالحَ مع الذات يعني الاقتراب نحو ترميم اللحظة المبدعة بالكشف والرؤيا والصدق، وهذا التصالحُ في لحظةِ الخراب والدّمار كان أشدّ قسوةً على إنتاج القاص المبدع "نصرت مردان" وأكثر إضاءةً لأعماله القَصصية والمسرحية والشعرية المختلفة التي كانت دومًا ضد ثقافة الاستلاب وسلطة الموت.

إنه في جديده القصصي الذي بين أيدينا، ينظرُ إلينا في استراحةِ الهدنةِ القصيرة من ثقبِ رصاصةٍ في ذاكرة الأيام التي أصابت كينونَتَنا الاجتماعية والسياسية في جغرافيةِ وجودِنا وألمنا الإنساني. إنه يسبُر ويوغلُ عميقًا في تحولاتنا ليشاطر ملامحَنا وتماهينا مع الحياة اليومية في أجلى صورِ الكشف والائتلاق، إنه يُقاربنا خلسةً، وبكلِّ تأنٍ وهدوء، وبلغةٍ واقعية وحسيّة مشحونة بالدلالةِ والترميز والإيحاء والإيجاز، وبناءٍ فنيٍ محكم لعالمٍ مُدهشٍ وأخّاذ من جهة، خانق ومقموع من جهةٍ أخرى، وهو في كلِّ هذه التضادات والمفارقات الحيّة يقدّم لنا ملامحَ بشرية نعرفها بدقة، بَيْدَ أننا نكتشف بغتةً بأنها ملامحُنا جميعًا وبدون استثناء.

وبغضِّ النظر عن خلفيةِ بعض مشاهده القصصية التي تشرخُها القسوةُ وأزيزُ الطائرات والبارود، فإن أغلبَ قصص المجموعة يرصدُ شرخَ الزمن في المحيط والبيئة والإنسان تمامًا مثل المرآة العاكسة التي تتحدثُ عن تحولاتِ زمنِ العشقِ في دواخلنا، وعن اقتحامنا للزمن الراكد فيها والذي زلزله الراوي من أعماق صوته الرافض والمُصادَر.

إن هذا الابن الوفي للعراق بمجموعته القصصية هذه قدم لنا تأسيسًا واستشرافًا أدبيًا وفنيًا لمستقبل القصة العراقية المعاصرة بعيدًا عن السرديّة القاتلة والتزويق الفَجّ الذي أجهض أغلبَ النصوص القصصية العراقية لأدباء الداخل والخارج طوال عقودٍ أربعة، والتي ولدت مبتورةً وغارقةً بدماء التهاويم الغامضة تحت سيوف الرقباء احتفاءً بنظرية المعادل الموضوعي للواقع المرير الذي عشناه.
لقد أتت هذه المجموعة بدونِ التباس، واضحة، وعارية إلا من غلالةِ الواقع الحي والشفيف وهي تغوص في أديم مسراتنا ومواجعنا.
فعذرًا، لانبهاري الجارف.

فاضل ناصر

فنان تشكيلي وقاص - السويد



أمـي

بغتة انتبه لصوت تحطم زجاج، نهض فزعًا من نومه، جلس على فراشه ينظر بعينين ناعستين حواليه، انتبه إلى أن ثمة ضوء ينسل من المطبخ فيضيء جزءًا من صالة الجلوس.

نهض متثاقلاً من فراشه متوجهًا نحو المطبخ، وجد أمه واقفة قرب الثلاجة، تنظر إلى قارورة المربي التي تحطمت، نظرت إليه كما ينظر طفل مذنب إلى من هو أكبر منه لحظة اقترافه خطأ، سمعها وهي تقول بصوت هامس:

- لقد تحطمت القارورة.

أحسَّ بانكسار داخلي في أعماقه، فهو لم يسمع أمه تتحدث معه بهذه النبرة قط.

سارع إلى جمع القارورة المحطمة، ومسح بسرعة آثار المربي المندلقة، ثم خرجا معًا من المطبخ، توجه هو إلى غرفته،لكنه رأى أمه مسمرة في مكانها،تنظر بحيرة حواليها وكأنها تريد البحث عن شيء ما.

- لماذا لا تدخلين غرفتك يا أمي العزيزة للنوم؟ لا يزال هناك وقت طويل للصباح.

نظرت إليه بعيون متبلدة، تخيم عليها الحيرة.

- وأين هي غرفتي؟ لا أستطيع الاهتداء إليها،

أطلق قهقهة طويلة وهو يضع يده علي كتفها برفق..

- هل هذه نكتة الليلة؟

أخيرًا قادها إلى غرفتها، وانتظرها وهي تتمدد علي سريرها،

- ليلة سعيدة يا أمي.

كانت تلك الليلة الأولى التي بدأت فيها ذاكرة أمه بالخفوت والانطفاء، كانت أمه تبدو بملابسها القديمة وهي بين صديقاتها المتبرجات كئيبة وحزينة، رغم الضحكات التي تطلقها من أجل نكتة تافهة من قبل إحداهن، كان يسمعهن يتحدثن لساعات طويلة عن نوع العطور الذي يستعملهن ومميزات كل عطر، كانت تكتفي بالصمت، وكان يدرك سبب صمتها، فهو لم يرها تستعمل العطور الباريسية التي يتحدثن عنها، لأنها لم تكن تعرف غير العطور المحلية الرخيصة كالتي تباع على عربات في الأسواق الشعبية،

رغم صمتها كان يبدو عليها أنها تعاني، وأنها تود أن يكون لها خزين من الحديث السخيف الدائر حول العطور. سنوات لم يرها في فستان جديد، ليس بسبب بخلها؛ بل بسبب تواضع راتب والده، ورغبتها كأم في أن يتمتع أولادها بأكبر قسط من الراحة، كانت تبدو داخل تلك

الملابس وكأنها لا تنتمي إلى هذا الزمان، بل إلى عقود خارج هذا الزمن.
بعد تلك الليلة تغير فيها كل شيء، بدأت مساحات الذهول والتفكير التي تعتريها بين فترة وأخرى تزداد وتتسع.

ظل يفكر في تلك الليلة التي لم تهتدي فيها إلى سريرها، فما حدث تلك الليلة تؤكد أنها تعاني من مرض مجهول جثم علي صدرها وروحها وذاكرتها فجأة.
بدأ لا يشعر بالرثاء علي أمه فقط، بل يحس بالخجل من بعض تصرفاتها وخاصة منذ ذلك النهار الذي استوقفه فيه بائع الخضار على استحياء، قائلا له، إن أمه اشترت منه يوم أمس كيلو من البلانجان والطماطم وحزمة من السلق وكيلو من القرع، وذهبت دون أن تدفع الثمن.
دفع للبائع ما طلبه معتذرًا أن أمه لربما نسيت سهوًا دفع ثمن ما اشترته. حينما دخل البيت وجد أمه في المطبخ وهي تعد العدة لإعداد أكلة (الدولمة)، لم يرها منذ مدة منطلقة كما كانت عليه في ذلك النهار، تغني أغان لم يسمع بها من قبل.
- أعد (الدولمة) لأن أخاك جبار سيأتي من الجبهة.

اعتراه رعب شديد وإحساس غريب بالخوف، إلى أي هاوية تنحدر أمه البائسة التي بدأ الزمان والمكان يخدع ذاكرتها المهددة بالانطفاء يومًا بعد يوم؟ لقد مر على مصرع أخيه في جبهة (المحمرة) أكثر من عشرين عامًا!

داعبها قائلاً:

- يا أمي العزيزة، جبار استشهد في الحرب منذ سنوات طويلة، بل أنه حتى صدام (أبو الحروب) قد ولى إلى غير رجعة.

نظرت إليه بحدة، كانت تلك من اللحظات النادرة، فهي لم تؤنبه طوال حياتها.

- ما هذه الدعابة السخيفة يا هشام؟ أقول لك سيأتي جبار، ولن يمد أحد يده إلى (الدولمة) قبل وصوله!

في يوم صادفها علي الرصيف المقابل للبيت وهي بملابس النوم، شعثاء الشعر، حافية القدمين لا تلوي على شيء، وحينما هرع ممسكًا بها، قالت له مبتسمة:

- أنا ذاهبة إلى أختك وصال لأطمئن عليها، هل تأتي معي؟

بعد الزمان والمكان فقدت النقود أهميتها بالنسبة لها،كانت تذهب إلى بائع الحلويات وتشتري منه ثم تنطلق من المحل دون أن تدفع شيئًا، أو

تدفع أضعاف ثمن ما تشتريه للبائعين الجوالين، وكان هو يسد الرتق التي تفتحها أمه في حياته الهادئة المنسابة مثل نهر لم يعتد على الجموح.

رويدًا رويدا بدأ الجميع ينفضون من حولها، صديقاتها من نسوة الجيران، وجزء كبير من أقاربها بعد أن أحس الجميع أنها فقدت الإحساس بالزمان والمكان، وأن ذاكرتها تنطفئ يوما بعد يوم، لكنها ظلت وفية لصديقاتها،كانت تقوم بزيارتهن، والغريب أنها كانت تهتدي إلى بيوتهن، في يوم قالت له متأففة بعد عودتها من زيارة لأحدى صديقاتها:

– ذهبت عند سعاد ولم تفتح لي الباب، رغم أنها كانت موجودة لقد سمعت صوتها وهي تقول لأطفالها، لقد عادت المجنونة ثانية، اسكتوا يا ملاعين حتى تذهب من أمام الباب، وهي تكركر من الضحك.

أحس بالإشفاق عليها، طار طائر الحزن في أعماق روحه وصفق بجناحيه، قبلها من عيونها المبتلتين بالدموع:

– أمي أرجوك لا تخرجي من دوني، أرجوك يا أمي.

واختلطت دموعه بدموعها التي بدأت تأخذ طريقها نحو وجنتيها،

في يوم حضرت جارتهم المعلمة "لبيبة" مع زوجها إلى زيارتهم في يوم عيد، كانت أمه تجلس أمامها بملابسها البيتية، وكالعادة كان يدور

حديث فارغ وتافه، قال والده لـ"لبيبة" بعد أن لاحظ أنها لا ترتشف الشاي:

- اشربي الشاي قبل أن يبرد.

نظرت لبيبة إلى قدح الشاي بتقزز وقالت:

- مستحيل أن أشرب من هذا القدح!

سألها باستغراب عن السبب، قالـت:

- انظر!

كانت عليه آثار أحمر الشفاه، مما يدل علي أنه لم يُغسل جيدًا، لن ينسَ أبدًا نظرة أبيه التي قدحت شررًا من الغضب والحقد والسخط على أمه، وكأنها يقول "حتى قدح الشاي أصبحت عاجزة عن غسله".

صرخ والده بوجهها بلهجة آمرة:

- هيا اذهبي وغيري القدح!

هل كان يحبها؟ لم يسمعه يومًا يتودد إليها أو يقول لها كلمة طيبة، كانت ملامحه الصارمة مرآة عاكسة لأعماقه، وكأنه لا يريد أن ينسى حتى في بيته بأنه مدير ذاتية في دائرة الطابو. حتى عندما كان يراها تستمع إلى أغنية في الراديو أو تدندن أغنية ما لـ"عفيفة" إسكندر، كان يعلق بغلظة:

- ما هذا؟ لا تنسي بأنك أم لثلاثة أولاد ولستِ بفتاة مراهقة؟

بدأ الزمن يتضاءل تدريجيًا في ذاكرتها، فالماضي أصبح ينتمي إلى الحاضر، والحاضر ارتدى لبوس الماضي، ولم يعد للمستقبل أي بصمة في حياتها، وكان أكثر ما يعذبه هو رؤيته لها وهي تذوب تدريجيًا، وتفقد علاقاتها مع الواقع.

كان يرى كل ذلك بلا حول ولا قوة، كانت تزداد بدانة بينما شعورها يضعف ويتلاشى، وكانت حينما تخرج في غفلة منه في أوقات نادرة من المنزل، كانت تدخل محلات الحلوى، والمكتبات فتضع أمام البائع كل ما تملك من أوراق نقدية ثم تنطلق غير ملوية على شيء، وكان من النادر أن يستدعيها البائع ليعيد لها الباقي.

سقطت النقود من حساباتها، وبدأت تنظر إليها كأوراق ملونة، حتى حاجياتها الصغيرة مثل السوار الذي كانت تحتفظ به في معصمها الأيسر منذ أيام الزواج، فوجئ بها وقد منحته لإحدى قريباتها التي كانت على حافة القبر من فرط شيخوختها، وحينما روت له الحكاية، نظرت إليه تلك النظرة التي ذكرته بنظرتها في تلك الليلة المشؤومة التي أسقطت فيه من يدها قارورة المربي، والتي سقط بعدها الزمان والمكان من حياتها كأوراق في شجرة هرمة.

- لم تزعل مني أليس كذلك؟

نطقته كما ينطقها طفل ارتكب حماقة ما وهو ينتظر التقريع واللوم من والده، أحس بموجة متدفقة من الحنان يلامس كنهر لا قرار له أعماقه،

احتضنها بحب صادق وهو يهمس لها والدمعة الرقراقة في عينيه علي وشك الانفلات من عينيه:

- لا، لا يا أمي العزيزة، لم أزعل، لم أزعل أبدًا !

وهو يصاحبها إلى بيت خالته، مرا من الزقاق الذي كانوا يسكنون فيه قبل عقود، لاحظ باستغراب أنها توقفت وبدأت تتأمل البيوت في طرفي الزقاق، ثم ما لبث أن قالت:

- أليس هذا هو زقاقنا القديم؟

وزاد استغرابه حينما رآها تشير إلى بيتهم القديم، استغرب كثيرًا من تذكرها هذا الزقاق بالذات، وهي التي أصبحت تخلط الساعات والأيام والبشر والزمن، هز رأسه بإيماءة إيجاب، وظلت عيناها تتأملان البيوت. تري أي سر دفع بذاكرتها المنطفئة إلى أن تتقد وتتذكر هذا المكان القديم؟ هل لأن ذكرياتها في هذا الزقاق المنسي أكبر من النسيان؟ هل عاشت في صباها فيه سويعات انطبعت في ذاكرتها وروحها؟ هل عاشت فيه حبها الأول؟

برق هذا الاحتمال في ذهنه، حبها الأول، ترى هل عاشت هذه المرأة التي تتلاشى إنسانيًا يومًا بعد يوم قصة حب في شبابها، قصة فيها كل تفاصيل قصص الحب من لوعة وشوق وعواطف جياشة؟. بدا له الأمر معقولاً ،فمن المستحيل أن تكون قد عاشت مع أبيه قصة حب، فهو لم

يرهما يتهامسان ولم ير والده يرمقها بنظرات فيها نصيب وافر من الحنو والحب حتى إلى آخر يوم من حياته قبل عشر سنوات. لم يمنع نفسه من التساؤل، كيف استطاع أبوه أن ينجبه وينجب شقيقه وأخته منها؟ لقد كان يعاملها دائما أنها أوطأ منزلة منه، رغم أن المسكينة لم تكن تدخر جهدًا لإسعاده وإسعاد أطفالها بالتقتير علي نفسها في كل شيء دائمًا، في المأكل والملبس والبقاء في البيت، كانت ترى أن مهمتها الأساسية في الحياة هي إسعادهم، أما هي وعواطفها فقد أصبحت تؤمن بسبب الجفاء المستمر من أبيه على أنه شيء هامشي ولا يحق لها أن تعطيه درجة من اهتمامها، لربما بدأت الآن تعوض ذلك بهروبها من البيت إلى الشارع كلما سنحت لها الفرصة تعويضًا عن حرمان تلك السنوات للانطلاق إلى الشارع لتزور من يخطر في بالها من صديقاتها أو قريباتها حتى لو كن من الدرجة العاشرة.

وجدها في مرة من المرات وقد أخلت رفوف المكتبة من الكتب والمجلات، وهي في بحث مضن بين صفحاتها، تأملها لبعض الوقت ليتحقق عن ما تريد البحث عنه، ثم ما لبث أن وجدها ترفع رأسها إليه وتسأله باهتمام:

– منذ الصباح وأنا أبحث عن مجلة (أهل النفط)!

ما الذي ذكرها بهذه المجلة التي كانت تصدر في العهد الملكي، وكان خاله الذي ظل مقيمًا عندهم حتى زواجه يحمل في بداية كل شهر،

عددًا من تلك المجلة، كان هو صبيًا صغيرًا آنذاك، إلا أنه رغم ذلك كان مغرمًا بقراءة بعض القصص والأخبار المثيرة، لم يرد أن يذكرها أن المجلة توقفت عن النشر بعد إعلان الجمهورية بل سايرها قائلاً:

- عن ماذا تبحثين في هذه المجلة؟

- عن صور الملك فيصل الثاني!

تذكر كيف أنها كانت معتادة علي قص صور الملك من المجلة والاحتفاظ بها في صندوق خشبي صغير، حرصت أن تعود إلى محتوياته بين فترة وأخرى حتى عهد قريب.

ألفاها تنشج بحرقة:

- لعنهم الله، كيف طاوعتهم قلوبهم على قتل الملك الشاب؟!

فجأة انساب قطار متعب في ذاكرته، انطلق من قيظ بغداد بعد أيام من اغتيال الملك، كان هو فيه مع أمه وشقيقه وأخته عائدين من بغداد من بيت خالته بعد أن عاشوا في بغداد أيام عصيبة شهدت مقتل الملك وسحل الجثث صباح ١٤ تموز (يوليو).

في ذلك القطار المزدحم، انطلق عدد من الركاب نحو بائع يحمل صورًا:

- صورة الزعيم بدرهم، صورة الزعيم الذي قتل الملك بدرهم!

وجد نفسه ينطلق نحو البائع، وعندما رأى الجميع يشترون صور الزعيم الذي سمعوا به ولم يروه رغم اليوم الثالث من الانقلاب، اخرج قطعة من فئة الخمسين فلسا من جيبه أعطته له خالته قبل أن يتحرك القطار.

أخذ الصورة فرحًا، وكأنه يحمل كنزًا ثمينًا إلي أمه:

– ماما، هذا هو الزعيم !

شدت الصورة من يده بقوة، تأملت الصورة بعض الوقت، كانت ملامحها تزداد قسوة خلالها:

– كيف طاوعك قلبك علي قتل الملك أيها الشرير؟!

ألقت بالصورة من نافذة القطار، رآها تتطاير بعض الوقت في الهواء ثم تتهادى يمنة ويسرة، لتسقط وسط أكوام من الأشواك البرية في منطقة قاحلة جرداء.

توالت الأيام والشهور والسنوات، ظل يتحمل بصبر كبوات أمه المسكينة، التي أصبحت بمرور الزمن كائنًا لا ينتمي إلى زمن معين، لم يضق بها، ظل يقبل وجنتيها كلما وجد دموعها تنهمل دون سبب، لم يتوان أن يقول في كل كبوة من كبواتها لكل من حوله، عند سؤالهم له عن المرأة التي دخلت ذاكرتها في خصام أبدي مع الزمن: إنها أمي !



فندق القمل الجميل

كان صاحب الفندق العجوز يبدو شبه غائب عن الوعي، يلوك شيئا غريبا في فمه، شككت في أن بمقدوره إيقاظي في فجر اليوم الثاني، فإجازتي انتهت يوم أمس، هذا آخر يوم لي هنا.

في الفجر سينتظرني زميلي الذي قرر هو الآخر أن يترك كل شيء خلفه ويمضي لأرض غير هذه الأرض، وإلى وطن لا مكان فيه للخنادق والحروب، ولا يكون فيه رئيس يوزع الموت والحياة فيه على شعبه في الخنادق أو في بيوتهم، أو في شوارع يُنتزعون منها ليقتادوا إلى سراديب وأنفاق مظلمة، خنادقنا التي تتطاير فوقها حمم الموت أرحم منها بكثير لأنها علي الأقل مفتوحة على الفضاء الذي تطل منه الشمس في النهار، والقمر والنجوم في الليل.

أنا رجل أميل إلى الهدوء والسكون، ولا أبغي الظلم والعدوان على أحد، لكنهم كانوا يقولون، إن لم تَقتل تُقتل، ولو قُتلت فأنت شهيد، والسيد الرئيس سيتكفل بعائلتك، وستكون أنت في قائمة الشهداء والصديقين. الأعداء الذين كنا نقتلهم يذهبون إلى الجحيم، أما نحن فان أرواحنا ستذهب إلى حيث الحور والغلمان والمياه التي تجري من تحتها الأنهار في الجنة.

وجدت نفسي في الجبهة فجأة، أعطوني بندقية وقالوا: هذا بلدك، وأولئك (أشاروا إلى الخندق الذي أمامنا) هـم الأعداء، ومن واجبك أن تقتلهم، وإن قتلوك هم ستصبح شهيدًا، وسيمنح الرئيس عائلتك راتبًا شهريًا وسيارة آخر موديل.

كانت الشمس التي تطل علينا في الفجر، تبدو مثل خيمة ذهبية تضم الكون بين حناياها، وكانت في جمالها الباهر الأخاذ، تبدو منطلقة لممارسة دورها التي بدأتها منذ أول يوم من أيام الخليقة من دون اكتراث بما تحدث لنا من مآس، نحن الجنود القابعين كفئران مذعورة في خنادق أعدت لنا سلفًا، خنادق طلبوا منا عدم مغادرتها إلا بأوامر، إما للهجوم على العدو أو النوم فيها في فترات الهدوء القليلة في الجبهة.

وجدت نفسي أتنقل بين الجبهات، أخفي نفسي في خنادق، وخلف سواتر رملية، وتحت الأرض كي أظل على الحياة، وكنت أطلق النار، ولم أكن أدري هل أصيب أحد بتلك الطلقات التي أطلقتها أم لا؟.

كانت الخنادق مثخنة بالرطوبة وفتات الطعام وأعقاب السجائر التي يحرس المدخنون على تدخينها داخل أكفهم، وخاصة في الليل كي لا يرى العدو اللهب المتألق في عتمة الليل وصمته. كان الموت يبدو منشغلاً، ينتقل بين الجنود في الخنادق ويشطب على أسماء من انهوا مهمتهم في هذه الأرض اللعينة، حيث تأتيهم شظية قنبلة فتقتلعهم من الحياة وكأنهم لم يأتوا إليها قط.

حاولت أن أهرب من هذا الجحيم مرات عديدة وأن أهيم علي وجهي في الصحراء، كنت عازمًا بكل خلاياي وشراييني في الانكفاء على أعتاب خيمة أول بدوي صارخًا:

- أغيثوني، أنا دخيل!

لكنني في كل مرة كنت أضطر إلى إلغاء الفكرة عن ذهني، بعد رؤية فرق الإعدام وهي تطلق النار من دون رحمة أو تردد علي كل من يحاولون إنقاذ أنفسهم من جحيم النيران، وحقول النار والموت، تحت الشمس اللافحة المحرقة أصبحت وجوهنا مغبرة كالحة كلون الأرض.

صعقت أمي حينما عدت إليها في أول إجازة:

- عيني عليك يا كبدي! ماذا فعلوا بوجهك الجميل؟ قاتلهم الله!

ثم بكت وهي تقول بأنني أذكرها بوجه أبي الذي اعتاد أن يلعن الحرب ليل نهار، وكان يأمل أن تنتهي في يوم ما، لكن الحياة توقفت في قلبه وشرايينه، ولم تنته الحرب.

كانت الحرب تفترس العشرات كل يوم مثل ذئب ضار، دون أدنى اهتمام بأحلامهم وأمانيهم وحسراتهم، لكن أرواحنا كانت تحاول دائمًا أن ترفرف بعيدة عن رائحة الدم وقشعريرة الموت. كم تمنيت أن أكون طائرًا أحوم في سماء الله الواسعة، أحط على بقعة لا مكان فيها للدم والبارود وأصوات المدافع، لكنني علمت أن الله لا يحقق الأماني دائمًا.

برغم الأماني، ورغم السخط والعذابات، كان الفجر يشرق علينا مبللاً بالدموع وملطخًا بالجثث والدم وأشلاء متناثرة هنا وهناك، كانت قبل لحظات لبشر يفكرون ويدخنون ويحلمون بنهاية أيام الجحيم.

في أيام القصف واليأس والوقوف كل لحظة على حافات الموت، صادقت جرذا مثيرًا للذعر بضخامته، كنت استأنس بوقت خروجه من الجحر، فكنت أضع فتات الخبز في علي فتحة جحره، وكنت أرقب بهدوء جولته اليومية بين قصعات الأكل، وكنت غالبًا ما أشكو للجرذ معاناتي ووحدتي وهو ينظر إلي بعينين مريبتين.
"إنك أكثر حظًا منا أيها الجرذ العزيز، تنتقل بين الحفر بحرية دون خوف من وجود مصائد، ودون أن تملك رئيسًا يبعثك رغمًا عنك إلى الحرب ضد أقرأنك، تنتقل بحرية بين الجحور دون أن تفاجأ بهر شرير، لن تستطيع أن تتصور أيها الجرذ الشريد مدى قسوة الهر الشرير الذي قضى على أحلامنا وأمانينا ودفعنا رغمًا عنا إلى هذه الخنادق للقتال!"

كان جدّي في ساعات صفائه الذهني يكلمني عن ذكرياته، عندما كان جنديًا في الجيش العثماني، فيحكي إنه كان يربط ساقيه برباط جريًا على عادة القتال في ذلك الزمان للقتال ضد العدو حتى آخر طلقة.

كنت أتساءل هل الحرب هي قدر هذه الأرض؟ لكن جدي كما كان يقول يحارب الكفار، أما نحن فنقاتل مسلمين لسبب لا أعرفه رغم إنني جندي في الجبهة.

لم أكن أصدق بسلطان النوم الرهيب على البشر، لو لم يداهمني ليلاً في أشد لحظات دوي المدافع وعوائها، كم طارت من رؤوس وتناثرت أمخاخ أثناء النوم، أو أثناء تناول الطعام في فترات الهدوء، حيث كانت تمتلئ في لحظة، القصعة بالدم وبنثار الأمخاخ المتناثرة.

فقدتُ سميرة بسبب هذه الحرب اللعينة، كتبت لي مرارًا أن احضر على الفور لأن والدها يرغمها على الزواج من عجوز متصاب، كنت مستعداً لاختطافها ومحاربة العالم من أجلها، لكن الآمر الفظ نبهني بأن الواجب الوطني أهم من لغة العواطف والقلوب، فالوطن فوق الجميع.

أرغموني في الخندق أن اختار الوطن، وأن أظل إما في انتظار الموت، أو أن أقتل برصاصة طائشة، أرغموني أن ألبي نداء الوطن ففقدت بذلك أعز ما أملك، بكيت بحرقة حينما وصلني نبأ زواجها، يومها قال لي العريف: - ألا تستحي؟! هل يبكي الرجل من أجل (حرمة)؟!

لكنني كنت قد بكيت كثيرًا قبلها، بكيت يوم موت أمي، ويوم قبضوا على أصغر أشقائي فذهب ولم يعد، وظلت أمي تبكيه حتى انطفأت كشمعة، بكيت يوم ما قبلت سميرة من شفتيها لأول مرة وأنا في الخامسة عشرة من عمري، كانت هي المرة الأولى التي يحتوي فيه فمي شفاه فتاة، أصبت برعدة ثم انفجرت دموعي.

كم مرة فكرت في أن أضحي بجزء من جسدي، أن أطلق النار علي ساقي أو يدي أو أفجر قنبلة لتكون سببا في إعاقتي وبالتالي سببًا في خلاصي من حياة الخنادق والرصاص والقنابل والموت في سبيل السيد الرئيس.

في الإجازات وعند عودتي من الحانة مخمورا، كنت أقف أمام تماثيله العديدة شاكيا بهمس ومنتحبا:

– لماذا يا سيدي حرمتني من سميرة؟ لقد فقدتها إلى الأبد، سافرتْ بعد زواجها إلى مدينة زوجها، ما الضير لو تزوجتها وعدت بعده إلى الجبهة، لكنني الآن أمنح نفسي إجازة رغما عنك، سأهرب إلى حيث لا تماثيلك ولا خطاباتك ولا عيونك.

شربت في الفندق أغرب قدح من الشاي، شاي أسود، مملوء حتى نصفه بالسكر، يبدو أن صاحبه يغليه منذ الصباح، ويضيف عليه الماء حينما

يقل دون أن يضع حفنة ولو صغيرة من الشاي، ولربما أضاف علي الغلاية قطع من السكر لأنها تجعل لون الشاي غامقا.

لم يبق أمامي من مهمة بعد الوصول إلي هذا الفندق المنسي إلا أن أستيقظ قبل الفجر لأنطلق إلي المنطقة التي سينتظرني فيها صديقي مع المهرب، ورغم أنني أوصيت صاحب الفندق ذا العينين الزائغتين بإيقاظي، إلا أن طائر الشك لم يغادر أعماقي، فهذا الرجل شبه النائم لا يمكن أن توكل إليه مثل هذه المهمة.

تمددت على السرير المتهالك الذي يصر صريرًا مزعجًا عند أقل حركة، ها قد اقتربت من نهاية الجحيم، وستكون أي بقعة أصل إليها أرحم من هذا الوطن الذي لم يرحم أحدًا من رفاقي وأقاربي.

أحسست بحكة غريبة تسري في كل جسمي، سريان النار في الهشيم، نهضت من الفراش القذر الذي يبدو أنه لم يغسل منذ أن وضع على هذا السرير البائس، أحسست أن لذعات القمل قد أزالت عني غمامة النوم، فجلست أفحص في قميصي عن القمل فعثرت بسهولة على عدد منه.

شاهدت على جدار الغرفة التي اختفى لونه آثار دماء، ولم أكن بحاجة إلى ذكاء خارق لأعلم أنها دماء قمل قضي عليها من سبقوني في النوم، في هذه الغرفة العامرة بالقمل، أخذت أهرش وأحك إبطي ورأسي،

حتى اختفت من ذهني كل الصور التي كانت تحاصرني وأنا في طريقي إلي الفندق.

حينما أزفت الساعة انطلقت بهدوء من الغرفة، كان صاحب الفندق نائمًا علي إيوان خشبي، وهو يشخر شخيرًا غريبًا، حمدت الله علي إنني لم أخلد إلى النوم معتمدًا عليه في إيقاظي قرب الفجر.

انطلقت لا ألوي على شيء، وحينما التفتت لآخر مرة لألقي نظرة على الفندق، فوجئت بسيارة شرطة تقترب منه، كانت في جولة لاصطياد مشبوهين أو هاربين من الخدمة العسكرية في الفندق.

عندما اقتربت من زميلي الواقف مع المهرب، اجتاحتني نوبة جديدة من الهرش والحك، تحت إبطي قبضت أصابعي علي قملة كبيرة، نظرت إليها بحنو وأنا ألقيها أرضًا من دون أن أسحقها بين إظفري، هامسًا بامتنان: "شكرًا.. شكرًا لكِ أيتها القملة العزيزة، لولاك لكنت الآن تحت رحمتهم".



أقرب من الأمس، أبعد من الغد

أصابه ذعر حقيقي حينما شاهد وجهه في المرآة، وهو يغسله لإزالة تراكمات النعاس والنوم عنه، فالوجه الذي كان أمامه في المرآة، وجه رجل كهل، حط الشيب ملامحه على شعره ووجهه. مسح وجهه بالمنشفة لكنه لم يستطع إلا أن يحدق في وجهه الجديد.

أصابه الخرس، هل هذا الرجل الذي يحدق إليه في المرآة هو وجهه، وجه الصبي الذي كأنه ليلة أمس حينما كان يكتب في فراشه الأرضي واجبه المدرسي؟. كم كان والده جذلاً وهو يسمعه يردد اسمه عند قراءته لكتاب (القراءة الخلدونية):

مردان

منام مردان

ما نام مردان

وكان يرددها وهو يسجلها في دفتره الصغير، متطلعا بخبث صوب والده الذي كان يحلق ذقنه مبتسمًا، فجأة وجد صبيا يدلف إلى غرفة الحمام وهو يقول له:

- صباح الخير يا بابا.. ألم تنته بعد؟ لقد تأخرت أريد غسل وجهي.

لم يسأل الصبي شيئًا فتصرفاته تدل على أنه ابنه، وإلا لما قال له (بابا).
خرج من الحمام بخطوات ثقيلة، يحيط به الذهول من كل جانب، فوجد نفسه في ردهة تؤدي إلى غرفة كبيرة وجد في وسطها امرأة تبدو عليها البدانة، ما الذي أتى به إلى هنا؟ أين هو بيتهم الطيني الذي كتب في غرفته الوحيدة واجبه المدرسي ليلة أمس؟

سمع المرأة البدينة تخاطبه بود:

- ساعة يا عزيزي وأنت تغسل وجهك في الحمام! تعال وافطر قبل أن تتأخر على الدوام.

دوام ! أي دوام؟ ومن هي هذه المرأة التي أعدت له الفطور؟ هل بدأ يصاب بالجنون؟ هل انقلب كل ما في حياته إلى عالم غرائبي؟

جلس على المائدة، وضعت المرأة الفطور أمامه بمودة وألفة، انتبه إلى وجود صورة معلقة في الغرفة، صورة كبيرة تجمعه بوجهه الذي فوجئ به هذا الصباح في المرآة وهذه المرأة التي تبتسم بفرح حقيقي وهي تلبس ملابس العروس، في جانبها صورة لهما مع اثنين من الأطفال.

جلس الصبي الذي حياه في هذا الصباح الغريب على عجل، وسرعان ما قال له:

- بابا.. أعطني مائة دينار، المعلم طلبه من الجميع دعمًا للمجهود الحربي.

نطق الرجل أمام ما يسمعه ويراه لأول مرة قائلاً:

- مجهود حربي؟!

وفوجئ بصوته يخرج من بلعومه غليظًا كصوت أي رجل، ليس فيه أثر لصوته الطفولي، الذي اعتاد أن يقرأ كتاب المطالعة بصوت عال،

قال الصبي بصوت آلي:

- نعم يا بابا، حربنا ضد الأمريكان.

أي صباح هذا الذي يعيشه، والذي يبدو منقطع الصلة والرحم بليلة أمس تماما، أفي ليلة واحدة ممكن أن يكبر المرء عدة سنوات دفعة واحدة، ليجد نفسه في بيت غريب تجمعه وإياه مع امرأة كل الدلائل تشير أنها زوجته، وصبي يحدثه عن حرب وعن مجهود حربي؟

رفعت المرأة يديها إلى السماء وهي تدعو بصوت عال:

- إلهي متى ترفع هذه الغمة عنا؟ ما لنا وهذه الحرب الطاحنة التي تأكل الأخضر واليابس؟

ثم التفتتْ إليه:

- لو رأيت أم عادل يوم أمس وهي تندب ابنها الذي لم يعثروا على جثته رغم مرور أسبوع على القصف، لو رأيت انهيارها لكفرت بالدنيا وبكل القيم.

وقبل أن يستجمع أفكاره ويلملم مشاعره المضطربة المشتتة في صباح هذا اليوم الغريب، سمع بوق سيارة.

قالت المرأة:

- ها قد حضر أبو هديل.

قال وهو ينظر إلى عيني المرأة التي لا شك إنها زوجته:

- ومن هو أبو هديل؟ وماذا يريد؟

نظرت بعينين فاحصتين متطلعين إليه كعيني شرطي:

- ماذا هل أثقلت أمس في الشرب؟ أبو هديل الذي تذهب بسيارته كل صباح إلى الدائرة!

بدون أن تنتظر منه الجواب، قامتْ وأحضرت له سترته، فوجئ بأنه يلبس سرواله وقميصه وربطة عنقه! قبلته المرأة من شفتيه قبلة قصيرة، وهي تودعه حتى الباب.

بالفعل وجد سيارة تنتظره وفيها رجل يضحك في وجهه باشًا، فتح باب السيارة وجلس إلى جانب الرجل الذي يدعى أبو هديل، والذي سأله بعد أن ألقى نظرة على وجهه:

- ما بك؟

ألفى نفسه يرد عليه قائلا:

- لا شيء.

أشعل الرجل سيجارة ونفث دخانا كثيفا من منخاريه:

- يا أخي لا أدري لماذا لا تأخذ الأمور ببساطة؟ أعرفك منذ ربع قرن وأنت كما أنت، تراوح في مكانك، إذا كنت قلقًا من تهديدات بوش الأرعن فلا تهتم، فكل تهديداته جوفاء كسابقاتها، سيلقون عدة صواريخ ويرحلون كالعادة إلى أن يجدوا لأنفسهم إسطوانة جديدة، مجرد استعراض عضلات من هذا الأمريكي الأرعن فهو يبحث عن ضحية لأحداث ١١ سبتمبر، حتى الحمار يعرف ذلك.

كان يتأمل فم الرجل، وهو يلقي كلماته بآلية من بين أسنانه التي اصفرت من التدخين، وكأنه إنسان آلي يردد قطعة من المحفوظات كتلك التي يلقاها الطلبة كل طالب بالتسلسل، كان الرجل يلقي، يتحدث بسهولة ويسر، بنفس اليسر الذي كان يردد بها أمس قصيدة (الشجرة) في الصف يوم أمس:

انظر لتلك الشجرة
ذات الغصون النضرة
كيف نمت من حبة
وكيف صارت شجرة؟

انتبه إلى أن الرجل المدعو أبا هديل لا يزال يتكلم بحماسة:

– سترى كيف سنكسر عظامهم، ويرسلهم الحرس الجمهوري في توابيت، وكما قال السيد الرئيس حفظه الله: سيغرق بوش وزميله الأرعن بلير في فيتنام جديدة، فيتنام عراقية.

وجد نفسه يسأل الرجل المدعو أبو هديل:
– من هو السيد الرئيس ومن هو بوش، والآخر الذي ذكرت اسمه؟
أطلق الرجل ضحكة مجلجلة ساخرًا بمرح:
– خوش نكتة، يبدو أنك أثقلت في الشرب يوم أمس كعادتك، وبدأت تحاول مسح هذه الأسماء من ذاكرتك.

على امتداد الطريق وبين كل شارع وحي، كان يرى صورة ضخمة لنفس الرجل في أوضاع مختلفة، تارة يحمل سيفًا، وتارة أخرى يمسك ببندقية أو يرفع يده تحية لشيء مجهول، أو يجلس على ظهر حصان أبيض.
تأفف الرجل الذي بجانبه وهو ينفث دخانًا كثيفًا من منخاريه:
– البارحة كانت لدي خفارة، أتدري أين؟ أمام أحد تماثيل السيد الرئيس، ظللتُ أحوم في البرد القارص حول التمثال حتى الصباح خشية أن يكتب عليه الخونة عبارات غير لائقة، لقد تلقينا أوامر

مشددة من قيادة الحزب بضرورة حماية تماثيل السيد الرئيس من عبث الخونة.

- هل كان الجو البارحة باردًا إلى هذا الحد؟

نظر إليه الرجل باستغراب وهو يقول:

- ماذا بك؟ ألا ترى كيف أن الأمطار تهطل حتى الآن؟!

في الطريق إلى الجهة المجهولة التي كانت السيارة تتجه إليها، شاهد سيارات عسكرية وعسكريون وأناس يلبسون بدلات خضراء.

فوجئ بالرجل يقول له:

- في داخلي يقين أن معركة (الحواسم) ستكون حاسمة ونهائية لرفع الحصار الضاري عن بلادنا.

كان عاجزًا أن يجد كلمة مناسبة ليرد بها على ما يتحدث به الرجل من الغاز وألفاظ لم يألفها.

وأخيرًا وقفت السيارة أمام مبنى مكتوب عليه (مديرية الطابو والعقارات)، تبع الرجل إلى نفس الغرفة التي اندفع إليها، كانت غرفة متواضعة فيها عدة مكاتب وفوق كل مكتب اسم شخص.

استغرب حينما وجد اسمه موضوعًا على أحد المكاتب، إذن عليه أن يجلس على هذا المكتب.

كان ثمة مراجعين يحملون ملفات وأوراق معهم. اقترب منه الرجل الذي قاده إلى هنا بسيارته وهو يحاول أن يتحدث بصوت خفيض:

- سأذهب إلى المدير لأحمل إليه هذه الإضبارة، يبدو عليك الإرهاق الشديد، يبدو أن الشرب الذي تفرط في تناوله أرهق قواك، سأعلم المدير أنك مريض.

أحس بالوحدة، ورأى الشمس وهي تجاهد من الانعتاق من قبضة غيوم كثيفة. ألقى نظرة على الغرفة، كان فيها صورة كبيرة لنفس الرجل الذي قال أبو هديل أنه حرس تمثاله ليلة أمس حتى الصباح.

حضر إلى الغرفة رجل بدين، يشبه مدير مدرسته التي كان يداوم فيها كل صباح قبل هذا اليوم الغرائبي. تفقدت عينا الرجل الموظفين في مكاتبهم، وبعين خبيرة، توقفت عيناه عنده، رآه يقترب منه ويحدثه بصوت ودود لا يناسب مظهره الذي يوحي بالحزم القسوة:

- خيرًا؟ يبدو عليك الإرهاق والتعب، هل تحس بسوء؟

وجد نفسه يهتف في وجه الرجل الودود:

- إنني فعلاً مريض... مريض جدًا يا أستاذ.

نظر إليه المدير بإشفاق:

- ولماذا حضرت للدوام يا أبا سومر؟ أنت عزيز عندنا ومن أكفأ موظفينا، اذهب واسترح في بيتك اليوم كي تعودا لنا غدًا بكامل حيويتك.

خرج المدير من الغرفة، بينما بدأ القابعون على مكاتبهم ينظرون إليه بحسد، سأله أحدهم:

– لماذا لا تذهب؟

لم يكن يستطيع الذهاب لأنه لا يستطيع الاهتداء إلى المنزل الذي خرج منه صباح هذا اليوم، الصباح الذي ودعته فيه امرأة قبلته من شفتيه قبلة باردة، وكأنها واجب عليها الإيفاء به رغمًا عنها.

جاءه الفرج من أحد الموظفين الذي قال له:

– لقد حصلت على إجازة زمنية وسوف أخرج الآن، إذا أحببت سأوصلك في طريقي إلى البيت.

وجد نفسه هذه المرة مع رجل آخر، وفي سيارة أخرى.

فتح الرجل الجديد الراديو الذي انطلق منه نشيد لم يسمعه قط "غالي غالي.. صدام غالي ".

أغلق الرجل الراديو بسخط مرددًا:

– هو وحده الغالي، ونحن وأرواحنا إلى جهنم وبئس المصير، هو الغالي ونحن وأرواحنا في رخص التراب، لكن إن شاء الله سنرى هذه المرة نهايته، بوش يبدو هذه المرة عازمًا على تخليصنا من شره.

كان يتابع الرجل الذي يغلي كالمرجل بصمت.

- لقد تحولنا إلى شحاذين بفضل (القائد الضرورة) الذي قتل أقرب رفاقه، لكنه كان رحيمًا بأحمد حسن البكر الذي قتله بالسم، ولم يعدمه كالآخرين، حارب إيران ثمان سنوات، ولم تكفيه ملايين الضحايا فاحتل الكويت، وأغرق العراق في حصار قصم ظهر الجميع، وتحولنا بفضله إلى شعب لا هم له إلا البحث عن الخبز. والله العظيم كان عبد الرحمن عارف أفضل منه ألف مرة، على الأقل أنه كان مسالمًا ولم يؤذ أحدًا طوال حكمه، لكن شعبنا يستحق ما يجري له لأنه قيم تواضع هذا الرجل على أنه ضعف. حتى عبد السلام عارف الذي احترق في الطائرة أفضل منه، آه ليت عبد الكريم قاسم قضى عليه في وقته، لكننا قابلنا نزاهة قاسم بالتآمر عليه وقتله أمام كاميرات التلفزيون، كما قتل هو من قبل غيلة الملك والوصي والعائلة المالكة.

كل الأسماء التي كان يرددها الرجل غريبة على سمعه، ماعدا اسم الملك، الذي كان يردد اسمه كل صباح في باحة المدرسة.

فوجئ بالرجل يبصق صوب تمثال الرجل الذي ينتشر في كل مكان:

- عفيه تماثيل ما تنتهي!

فجأة انتبه إلى اصطدام السيارة التي يقودها الرجل بحافلة، صرخ بقوة وفزع، أحس بعده بظلام شديد يطبق على عينيه.

* * *

وجد نفسه في الغرفة يتصبب عرقًا، وهو يردد كمن تأكله حمى مجهولة:

- عبد الكريم قاسم سيقتل الملك، عبد السلام سيقتل عبد الكريم، عبد السلام سيموت محترقًا في طائرة، أحمد حسن البكر سيرغم عبد الرحمن عارف على الخروج من العراق، صدام سيسمم البكر ليموت ببطء، صدام سيحكم العراق ويخوض حروبًا وسيدمر العراق، وبوش...

فجأة نزل صوت أمه بردًا وسلاما على قلبه:

- هيا يا عزيزي، لقد تأخرت على المدرسة.

فتح عينيه، كان ثمة نهار رائق يتسرب إلى الغرفة من نافذة الغرفة، كان لا يزال مذهولاً، يراوح بين الواقع والخيال بين يومه الغرائبي الذي عاشه قبل قليل، وبين صوت أمه وهي تعيده إلى طفولته.

غسل وجهه وهو يقول:

- ماما، إن رجلاً يدعى عبد الكريم قاسم سيقتل الملك، وقاسم سيقتله عارف، وعارف سيحترق في طائرة، وسيطرد شقيقه عبد الرحمن رجل اسمه أحمد حسن البكر من قصره ومن العراق، وسيسمم رجل اسمه صدام البكر، وصدام سيقود العراق إلى الخراب وبوش.

جففت أمه وجهه بالمنشفة وهي تقول له:

- ما هذا الهراء يا ولدي؟ وما هذه الأسماء الغريبة التي ترددها؟

- لقد سمعتها ليلة أمس في حلم رهيب.

قالت له أمه:

- إنه مجرد كابوس.

انطلق بعد دقائق إلى مدرسته، نسي حلمه تمامًا وهو يقف بين زملائه في المدرسة ليردد معهم في ساحتها النشيد الصباحي:

موطني.. موطني
الجلال و الجمال و السناء و البهاء في رباك
في رباك
و الحياة و النجاة و الهناء و الرجاء في هواك
في هواك
هل أراك
سالمًا منعمًا و غانمًا مكرمًا
هل أراك
في علاك
تبلغ السما
موطني.. موطني

جنيف
18/4/2000



هووهي

لم يصدق حينما رآها أمامه فجأة، بعد ما لا يدريه من عقود، صدفة لا تحدث لربما في أسوأ الأفلام الهندية.

كانت أمامه، توقفت بعد أن كادت تصطدم به، توقفا للحظات دون كلام، وكأنهما لا يجدان ما يتحدثان به.

هتفت:

- عادل!

وبنفس اللهفة رد عليها:

- لمياء!

تأمل شعرها الذي كان ينام بوداعة على كتفيه في زمنٍ ما، بدا له بعيدًا جدًا، بدا وكأنه يتذكره من فيلم نسي اسمه، شعرها الذي كان يقبل كل شعرة فيه مائة مرة، بل مليون مرة بروح جذلى وعواطف منطلقة إلى أقصى حدود الحب، شعر عبثت به يد الزمن الغادر فملأه شيبًا وبياضا.

أخذ يتأمل فمها الذي كان يحدثه، هذا الفم الذي كان يقول لها في كل لقاء، إنه خُلق للقُبل، ولم يخلق للكلام والتنفس وتناول الطعام، كان

يقول ذلك ثم يغرق شفتيها المكتنزتين بقبل تحمل حرارة لوعته ودفء مشاعره، ونيران شهوته، التي تحيط بتلافيف روحه وأعماق نفسه التي لم يكن فيها إلا صورتها.

إلهي! هل ما يراه الآن هو ذلك الفم المعبود الذي ما كان يتركه إلا مخمورا من القبل، أين اختفت تلك الشفاه القرمزية؟ هل هذا الخط الرفيع، كخيط فقد لونه وبريق الحياة هو ذاك الفم المسكر؟ هل هذه الأسنان المشوهة هي نفسها التي كانت تبرق كاللؤلؤ من بين ثنايا شفتيها؟

صافحته... أحس وكأن كفه تقبض على كومة من عظام مغلفة بجلد باهت، منطفئ، بلا حياة ولا حيوية.

– صدفة سعيدة، أليس كذلك؟

تأمل عينيها اللتين تشبهان عينيّ ميت، غابت عنهما الخضرة التي كانت تهزه حتى الأعماق، وتزيد من نيران اللهب، التي كانت تلهب أعماقه في كل لقاء.

صوتها اخشوشن، وغادره تغريد البلابل وزقزقة الطيور، وهي تغني له أغنية عبد الحليم حافظ (على قد الشوق اللي في عيونك).

أراد أن يغمض عينيه، أن يبتعد عنها، لم يكن يريد أن يرى أجمل ما رأته عيناه، وهي حطام امرأة مسنة، عبثت يد السنوات في كل تفاصيل جسدها، وقلب صورتها في ذاكرته رأسًا على عقب.

كانت في ذاكرته حتى قبل هذه اللحظة بقليل كما كانت في سنوات الحب واللهفة، أميرة خُلق فمها للثم ويديها للتقبيل، كلما تذكرها كان أريج السعادة تغمر كيانه وروحه، لم تكبر أبدًا في ذاكرته، لم تمتد إلى صورتها يد الزمان الغادر إليها، كما هي الآن.

- حقا إنها صدفة سعيدة يا لمياء.

توقفا لبرهة عن الكلام وأخذا ينظران إلى الكتب المعروضة في المكتبة التي التقيا أمامها صدفة، وكأنهما لا يجدان ما يتحدثان به.

في لحظات صفائه كان يفكر فيها دائما، كانت جزءًا من جسده وروحه وأعماقه ونفسه وعواطفه، كانت عطرًا فواحًا من زمن مضى، أريجًا مسكرًا لأيام تأبى أن تغادر الذاكرة.

وجدها تقول له:

- لقد توفي زوجي قبل أعوام، وأنا الآن سعيدة مع أولادي.

كانت تحدثه بنفس الفم الذي كان يناغيه ويغني له ويداعب رقبته، ويحط على شفتيه كفراشة ظمأى.

- هل لديكِ أولاد؟

انتابتها نوبة من السعال، رأى الدموع تطفر من عينيها اللتين كانت في يوم ما خضراوين.

- لي ولدان وبنت واحدة، الأكبر مهندس وشقيقه طبيب أما البنت فهي معلمة، وأنت؟

- لم أتزوج، كنت أظن دائمًا أن الوقت لا يزال مبكرًا بعد للزواج وأن أمامي متسع من الوقت، إلى أن وجدت نفسي في يومٍ ما أمام المرآة مبيض الشعر، شيخًا يجتر ماضيه ولم يعد له نصيب من المستقبل.

صمت للحظات ثم قال:

- كما إنني أعاني من السكري وارتفاع ضغط الدم.

- وأنا بدوري أعاني من تكلس في العمود الفقري.

لم يجدها متلهفة للحديث معه، كانت تبدو وكأنها تنتظر الفرصة المناسبة للاستئذان والانصراف، أراد أن يرفع عنها الحرج فبادرها بالقول:

- يبدو أنكِ تريدين الذهاب؟

من نفس الفم الذي قبله مليون مرة في ذلك الزمن الجميل، قالت كالمعتذرة:

- لو سمحت، علي الذهاب إلى المستشفى لرؤية حفيدي الأول.

صافحته بنفس اليد التي كانت تعتصر همومه ونيرانه وجموحه، وذهبت.

تأملها وهي تمشي بخطوات سريعة مضطربة، وكأنها مسافر يريد اللحاق بالقطار الأخير قبل أن يغادر المحطة... كانت مثل هيكل إنساني يخطو في الشارع المزدحم بالحركة والحياة أيامه الأخيرة.

* * *

لم تصدق عينيها وهي تكتشف أن الرجل الواقف أمام واجهة المكتبة الزجاجية هو عادل.

كانت على وشك الاصطدام به، عندما وقفت للاعتذار منه، وإذا بها تكتشف أنها أمامه بعد سنوات نسيت عددها، قذفه القدر أمامها فجأة دون مقدمات، لم يكن ثمة أثر للشعر في رأسه، كان الصلع قد تمكن من شعر رأسه الذي بدا دون شعر على الإطلاق.

لا يعقل أن يكون هذا الرجل المليء بالشيب والشيخوخة هو الذي كان يغرق شفتيها بالقبل، هامسًا بجنون: هذا الفم ملكي، ممنوع عليه التنفس والطعام، إنه مخلوق للقبل فقط.

تأملتْ شفتيه الذابلتين تحت شاربه الأشيب الذي أصفر من فرط التدخين. شعرتْ بيده ترتعش بين يدها، وكأنها مصابة بمرض سري، تأملتْ قامته أيضًا بدا لها أنه أقصر من قامته في سنوات البهجة والحب التي غادرهما دون استئذان، تذكرت كيف أنها كانت تضطر للوقوف على أطراف أصابع قدميها لتبلغ شفتيه وهما واقفان.

هل هذه اليد المرتعشة، هي تلك اليد التي كانت تكتب الشعارات السياسية على الجدران؟ وتخطط المناشير السرية؟ نسيت للحظة ما كانت تخطه تلك اليد التي قادته إلى السجن بعد العثور على منشورات سرية في منزله، غاب بعدها عن حياتها إلى أن ظهر أمامها فجأة الآن.

عندما كان يحدثها عن أمراضه لم تصدق أن هيكل الرجل الوحيد، المحطم أمامها هو من كان يملأ حياتها في زمنٍ ما بالفرح، وكان يتصور أنه بشعاراته السياسية سيحرر العالم ويملأ الدنيا عدلا.
لم تكن سعيدة بهذه الصدفة، التي اكتشفت فيها أن الواقع ليس جميلاً كالأحلام، وأن الزمن يعادي الذاكرة ويشوه صورة الأحبة.

كانت متلهفة للوصول إلى المستشفى لرؤية حفيدها الأول، ولربما أحس بقلقها ورغبتها بالذهاب عندما رآها تنظر إلى ساعتها بين فينة وأخرى فوجدته يقول لها:

- يبدو أنكِ تريدين الذهاب؟

صافحته وانطلقت مسرعة، لكنها التفتت إليه للمرة الأخيرة قبل أن تعبر الشارع، ورأته يمشي محني الظهر منكسرًا، لم تصدق أن هذا المنطلق بسرعة نحو الشيخوخة، كان يؤمن في يوم ما أنه سيحرر العالم ويغرق الدنيا بالعدل.

عبرت الشارع، ولم تلتفتْ إليه مرة أخرى.

جنيف
29/4/2004



استقالة

أعتذر يا سيدي لو تداخلت كلماتي، وبدت رسالتي بعيدة عن الأسلوب المألوف في طلب الاستقالة، فأنا لا أعتبر ما أكتب محض طلب للاستقالة، بل اعتبره اعترافًا في الكشف عن الدهاليز المظلمة التي تلف أعماقي، والتي لا يعرفها أحد غيري.

كنتُ حتى الأمس القريب إنسانًا ودودًا، بشوشًا، كنتُ محط إعجاب زملائي في الحي والدائرة على حد سواء، لم تكن لي من عادة سيئة سوى تناول كأسين من العرق كل مساء (إذا كانت هذه عادة سيئة).

علمني والدي أن (القناعة كنز لا يفنى)، تعودت عيناي منذ طفولتي على هذه اللوحة معلقة في صالة بيتنا، لذلك ظللت حتى الأمس القريب سعيدًا بوظيفتي ككاتب صادرة وواردة.

منذ أن وعيت على نفسي وأنا أرافق والدي المغرم بالصيد في قريتي (قره ناز)، كنت أنتظر معه بلهفة منتظرًا في مكمنه أو خلف جذع شجرة لساعات، خروج أرنب بري ليصطاده، أو ثعلب يقوده سوء حظه ليمر من أمام فوهة بندقية والدي التي لا ترحم، وكما يقول المثل (الولد سر أبيه) بدأت رويدًا رويدا كلما كبرت في السن، أبز والدي في مطاردة الطرائد البرية، وأصبح إطلاق النار على المخلوقات البرية من متعي الكبرى.

امتدت شهرتي في قريتي كصياد لا يشق له غبار، لم يكن يهمني ماهية الهدف، ثعلبا كان أم أرنبا مذعورا أو غزالا شريدا قاده سوء حظه لمرور من أمامي في ذلك اليوم، لا أخفيك يا سيدي أن هذه الشهرة، كانت تشبع غروري حتى بعد عملي كموظف في البلدية.

كنت أنتظر أيام الجمع بفارغ الصبر، ليس بهدف التجول في بارات مدينة كركوك بل للانطلاق صوب قريتي (قره ناز) منذ الصباح الباكر كي لا أتأخر عن موعدي مع الثعالب والأرانب البرية والطيور.

لم تتغير عادتي هذه حتى بعد زواجي، كم من مرة حاولت فيها زوجتي ردعي عن طيشي وغروري وإصراري على اصطياد تلك الحيوانات بل قتلها.

أجل أعترف لك يا سيدي إنني بدأت أتلذذ بقتل وإزهاق أرواح الحيوانات البرية، كنت أصطاد الثعلب لا لغرض الحصول على جلده الثمين بل لقتله، وأنا أقف على رأس ضحيتي الصريعة كنت أحس نفسي بطلاً أسطوريًا في قمة نشوته. الغريب إنني كنت التقط صورا تذكارية مع ضحاياي، في جميع هذه الصور كنت أبتسم ملء نواجذي.

لقد تغيرت حياتي يا سيدي، بل أظلمت في اليوم الذي علمتَ فيه من زملائي بأنني صياد ماهر، يصيب طريدته دائما في الصميم.

عندما استدعيتني إلى مكتبك لأول مرة، اعترف لك يا سيدي بأنني استغربت بل ذهلت، وتساءلت ملذا يريد مدير في حجمك من موظف بسيط مثلي؟. استقبلتني بابتسامة عريضة عند دخولي إلى مكتبك، كنتُ مستغربًا بصراحة لتلك الابتسامة على وجهك التي لم نرها مع بقية العاملين، إلا موشحًا بستار من الجدية بل من العبوس، وكنت أعتقد لسذاجتي، أن المدراء لا يبتسمون، وفي الحقيقة لم يهمني ذلك كثيرًا، فالجدية والعبوس من صفات المدير ولا استثناء لهذه القاعدة إلا في حالات محدودة جدًا.

عندما وقفتُ أمامك، قلت لي:

- سمعت بأنك صياد ماهر، لا تخطئ إطلاقاتك قط؟

اكتفيتُ بابتسامة، منتظرًا منك توضيحًا لاستدعائي. لم يطل انتظاري، فسرعان ما قلت لي بمودة:

- سنحتاجك في يومٍ ما.

شكرتك يا سيدي، ولم أسألك في أي أمر ستحتاجني. أمضيتُ اليوم بأكمله أفكر في الأمر، لكنني سرعان ما نسيت الموضوع برمته، حينما مرت عدة أيام ولم تستدعني، انغمست في حياتي اليومية، عمل في النهار، وكأسان من العرق كل مساء في البيت، أو الحانة أحيانًا مع أصدقائي. لم يكن حديثي معهم يتغير، بل كان منحصرًا دائمًا عما اصطدته آخر مرة.

كنت أحس في كل يوم أن نشوتي في إطلاق النار على الحيوانات البرية المسكينة وإزهاق أرواحها بدأت تتحول إلى شغف لا حدود له، كأنني أحد الآلهة التي تقبض الأرواح في الأساطير، كنت ملكًا والبرية مملكتي وحيواناتها مخلوقاتي التي أصب عليها جام غضبي، ولم أكن أجد غرابة في ذلك، ألم تعلمنا الأساطير أن الآلهة تسخط وتغضب وترضى وتنتقم وتكافئ كالبشر تماما؟ كنت مثل تلك الآلهة بفارق بسيط: أن الآلهة لم تكن تلتقط صورًا وهي تضع بنشوة قدمها الأيمن فوق رؤوس ضحاياها، كما كنت أفعل دائمًا.

حتى أحلامي لم تكن مثل الأحلام التي يراها في المنام كل الناس. في أحلامي كنت أرى نفسي دائمًا في غابة، وأمامي حيوانات لا عد لها ولا حصر، وهي تهرع وتفر من أمامي تبحث عن منفذ للنجاة من إطلاقاتي التي لا ترحم ولا تخطئ أبدًا.

أعتذر يا سيدي لو أطلت عليك، وحولت رسالة استقالتي إلى رسالة اعتراف لفتح مغاليق روحي المريضة، السعيدة بإهداء الموت إلى الحيوانات.

دون سابق انتظار يا سيدي استدعيتني في يوم إلى مكتبك للمرة الثانية، كانت ملامحك جادة هذه المرة، قلت لي:

- اسمع يا قادر، لقد اخترتك رئيسًا لفرقة البلدية التي شكلتها مؤخرًا لإبادة الكلاب السائبة، التي تهدد حياة المواطنين، مبروك.

هكذا ودعتُ عملي الروتيني الذي لم أحبه قط، لقد أرضى تعيينك لي في المهمة الجديدة غروري، اعتبرتُ تعيني في مهمتي الجديدة بمثابة تتويج واعتراف منكم بمهارتي.

في نفس المساء شاركت أصدقائي الشرب في نادي الموظفين، كنتُ خلال الأمسية منتفخ الأوداج كديك مختال بعرفه وصياحه وهيئته، وكنت انتفخ غرورًا كلما قال لي أحد زملائي في الحانة:

- طبعا، المسألة واضحة وضوح الشمس، لولا اقتناع الإدارة بمهارتك لما كلفك المدير بهذه المهمة، هل هناك رصاص يعلو على الرصاصة التي تطلقها نحو الطرائد؟

- حتى أمهر صياد في المدينة هو صفر على الشمال بالنسبة إليك.

- إنها خطوة هامة من البلدية، فقد هاجمت الكلاب السائبة عددًا من الطلبة الصغار في حينا عند ذهابهم إلى المدرسة صباح أمس.

رد عليه آخر وهو يكرع جرعة كبيرة من كأسه بعد نفس عميق من سيجارته:

- إنها مهمة إنسانية ووطنية، وما من أحد يستحق غيرك هذا الشرف.

هكذا يا سيدي تبدلت حياتي، فبعد أن كنت أجلس لساعات خلف مكتبي أضع أرقام وتواريخ على كل الأوراق في غرفتي، التي كانت تشبه قنا في سرداب، انطلقت للشوارع وأزقة المدينة، أصبحت أنطلق مع فريقي بسيارة ومعي إضافة إلى السائق شخصان مهمتهما حمل جثث الكلاب، كنت أحمل بندقيتي، وكان المطلوب مني هذه المرة، أن أمارس هوايتي، بل أشبع شهوتي إلى الدم في الشوارع، أن أزهق أرواح الكلاب في الشوارع والأزقة في وضح النهار وبتكليف رسمي منك سيدي المدير.

كنت أبلغ ذروة نشوتي التي تشابه لذة القذف عند الجماع، عندما أرى الدماء تتدفق كالنافورة من رأس الكلب الذي أصيبه، كان يعجبني أن أنظر إلى الكلب وهو يلهث لافظا أنفاسه الأخيرة وهو ينزف بغزارة، تصيبه الرعشة وتضطرب أطرافه قبل أن ينام نومته الأبدية.

كنتُ فخوراُ بعملي وبفريقي، كنا نؤدي عملنا بنجاح، أنا أقتل والآخرون يسحبون الجثة ويلقونها خلف السيارة. التقطنا صورا تذكارية كثيرة في كل مهمة أنجزناها بنجاح.

كما تعلم يا سيدي، كل حيوان يملك قدرًا من الذكاء يساعده على حماية نفسه، الكلاب السائبة سرعان ما تعرفت علينا، وعلى نوع

مهمتنا، فأصبحت تفر إلى الأزقة الخلفية حال مشاهدتها لي وبيدي آلة القتل: البندقية.

لقد أصبحتْ تدرك أن موتًا يتربص بها في فوهة بندقيتي. وبهدف استدراج الكلاب بدأنا نقوم بشراء قطع من اللحم، نسممها ونلقيها قطعًا أمامهم، لم يكن الكلب الجائع الشريد، الذي لربما قضى يومًا أو أكثر يبحث عن عظمة وسط القمامة، ليرفض هذه الوليمة.

كان ذكاء الكلب الجائع، يتوقف ويتجمد أمام هذه الوليمة الشهية، وكان المسكين عندما يتناول بلهفة وسرعة كمية منها، يصاب بعد وقت قصير بارتعاش شديد ثم يقعي على أطرافه ويبدأ بانتظار الموت المحتوم، الذي سرعان ما كان يأتيه من بندقيتي كرصاصة رحمة.

بعد كل رصاصة كنت أتطلع حوالي بزهو، كان ثمة من يهنئني في بعض المرات:

– بارك الله فيك، لقد حررتنا من سطوة هذه الكلاب السائبة.

وثمة من ينظر إلي بغضب مزجرًا:

– حرام عليك قتل هذه الحيوانات المسكينة التي تموت فيها روح العداء بمجرد أن تلقي لها بقطعة عظم أو قطعة من رغيف يابس!

كنت لا أبالي بأمثال هؤلاء، فهم لا يريدون أن أتمتع بالنشوة التي أحسها عند سقوط أي كلب صريعًا لإطلاقاتي.

كنت حريصًا على التقاط صورًا تذكارية أمام ضحاياي لأضعها في ألبوم خاص، كنت انتشي حينما أتفرج عليها، وكانت كل صورة تحمل تاريخ القتل، لم تكن صورًا مختلفة بل كانت تبدو وكأنها نسخ عديدة لصورة واحدة، في كل الصور كنت أقف إلى جانب جثة الكلب الصريع ممسكًا بالبندقية وثمة ابتسامة تتراقص على شفتي.

كان يمكن يا سيدي أن تمر أيامي على هذا المنوال، وأظل أنا ملك الأزقة والشوارع التي أقبض فيها أرواح الكلاب، لولا ذلك اليوم الذي تغير فيه كل شيء رأسًا على عقب.

كان يومًا عاديًا مثل بقية الأيام، تلقينا خبرا عن وجود كلب في أحد الأزقة، عندما وصلنا إلى المكان المطلوب فوجئنا بوجود الكلب مع جرائه، لم تتركنا الأم نقترب منها أكثر، لا خوفًا على نفسها؛ بل دفاعًا عن صغارها.

لجأنا إلى الطريقة التي لا يمكن أن يهملها أي كلب: اللحم المسموم.

أثار منظر اللحم ورائحته الأم، نسيت الحذر والريبة، وهي تقترب منا، تهز ذيلها بمودة.

بدأتْ تتناول اللحم بلهفة، سرعان ما ظهر عليها أعراض التسمم، أخذت ترتعش بعنف، رغم ذلك لم تدعنا نقترب من صغارها، لم تكن تريد حماية نفسها بل حماية جرائها.

هنا لم أر بدًا من اللجوء إلى البندقية، أطلقت طلقة أصابت رقبتها، أخذت تنزف بقوة، أحس الصغار بأن ثمة خطر تتعرض له أمهم، لم تسقط الأم بل أخذت تقترب مني زاحفة على قائمتيها الأماميتين، توقفت أمامي تمامًا، نظرت إلي يا سيدي بعيون أم تريد حماية صغارها مهما كان الثمن، أحسستُ من نظراتها أنها تريد حماية صغارها من الموت الذي بدأ يداهمها.

أقسم بالله العظيم يا سيدي، بأنني رأيت الدموع تملأ عينيها، كان هذا أول مرة في حياتي أرى فيه حيوانًا يبكي، بل تتوسل بعيون صامتة أن لا أؤذي صغارها، كانت ترضى بالموت لنفسها، لكنها بغريزة الأم ظلت تتوسل لي بنظراتها التي لن أنساها طوال حياتي، وكأنها تتطلب أن أتوقف عن القتل. استجمعت الأم بقايا قوتها وزحفت نحو بقية اللحم المسموم، منطرحة فوقه تمامًا، لتمنع صغارها من تناوله.
أحسست أنني أسقط في هاوية بلا قرار، وأن مائة يد مجهولة تطلق النار على رأسي وذاكرتي وشراييني، كانت هي المرة الأولى التي لم ألتقط فيها صورة مع ضحيتي.

حاصرتني جبال من الندم والحيرة والهموم، للمرة الأولى في حياتي أحسستُ بقذارة العمل الذي أقوم به.

لقد أعادتني هذه الأم إلى حقيقتي الإنسانية، التي غابت عني طويلاً، ظلت عيناها الدامعتين لليال لا عد لها، تبرقان في ساعات ليلي ونهاري في كل ليلة أحلم بكابوس يا سيدي، كابوس حقيقي، أرى مجموعة من الكلاب تحاول افتراس وحيدي، وأنا أقف مذعورًا أمامها بعينين دامعتين، متوسلتين كعيني الكلب الذي قتلته أمام جرائه.

بعد ذلك اليوم، لم أعد إنسانًا سويًا، بعتُ بندقيتي إلى قروي، وألغيت من حياتي الصيد والقتل.

انقلبتْ حياتي رأسًا على عقب، بدأتُ أشرب في ساعات النهار أيضًا، غير عابئ بتوسلات زوجتي.

- سيدي.. ستصاب يدي بالشلل إن أمسكت مرة أخرى ببندقية في حياتي، لم أعد أصلح للعمل كقاتل للكلاب، لم أعد إلا رجلاً تقض مضجعه الأحلام والكوابيس، لم أعد أصلح للعمل يا سيدي، فالكلاب تحاصرني في كل مكان.

سيدي، أرجو قبول استقالتي فورا.

جنيف

3/6/2004



عندما يأتي المساء

أستيقظُ مع زقزقة الطيور ساعة الفجر، وكأنني على موعد معها، أستيقظُ في وقتٍ يقترب فيه الخيط الأسود من الخيط الأبيض، أجلس متكورًا على نفسي وراء المكتب، بعد أن أضع أمامي قدحًا من الشاي الغامق ليزيل عني كل أثر للنعاس.

منذ سنوات وأنا لم أخلف وعدي مع الفجر، حينما ينبلج النهار رويدًا رويدا، يمر من أمامي بشر فرادى صامتين، هادئين، وكأنهم يحرصون بخطواتهم الهادئة على عدم إيقاظ أولئك الذين لا يزالون يتمتعون بنومهم في فراشهم، مارين من أمام نوافذ مضاءة وأخرى لا تزال غارقة في الظلمة، ومن أمام بيوت ترتفع في بعضها أصوات خجلى، لا تكاد تُسمع. إزاء هذا المنظر أحس وكأنني أمام مسرح يُضاء تدريجيًا، فتظهر وجوه الممثلين رويدًا رويدا.

في تلك الساعات اعتدت أن أرى الطبيعة تستيقظ من رقدتها الليلية، وبشرًا يسعون إلى أعمالهم بهدوء.

في هذه الساعات، يحتل جمال بائع أوراق اليانصيب مكانه المعتاد قبل الجميع، لا أعرف لما يحرص على الحضور في مثل هذه الساعة المبكرة،

يتبعه صباغ الأحذية علاوي. ويدلف الزبائن في تلك الصباحية بخطوات خجلى إلى المقهى، جالسين بصمت، ليضع عامل المقهى عنتر، أمامهم أقداح الشاي دون أن يسأل أحدًا منهم، فلا شيء غير الشاي في تلك الساعات. يتفرج بعضهم بلا مبالاة على التلفزيون، الذي تعود صاحب المقهى على فتحه، تبدأ في تلك الساعات برامج هادئة، وكأنها تنتظر أن يرتفع قرص الشمس إلى أعلى لتبدأ ببث برامج تزداد سخونتها رويدًا رويدا مثل قرص الشمس.

لم أسأل نفسي قط منذ متى وأنا أرى هذا المنظر، الذي أعيشه كل فجر، وأنا أرتشف بصمت قدح الشاي، فقد تعودت أن أنام بعد الجميع ثم أستيقظ مثلهم لأتأمل الحياة من واجهة الفندق وهي تعود إلى طبيعتها رويدًا رويدا في الشارع.

كان من الممكن أن تستمر حياتي على هذا النمط خلف مكتب الاستقبال في الفندق المتواضع، الذي أعمل فيه وأصبحت جزءًا منه، متأملاً من خلف الزجاج وجوه أناس رائحين غادين إلى مكان تحت نهار جديد مجهول قد يكون مليئا للبعض بمفاجآت، وبالكآبات للبعض الآخر.

تعودت على استقبال أنماط غريبة من النزلاء في هذا الفندق المركون على جانب منسي من الشارع، نزلاء يبقون لأيام ثم يغادرون الفندق

إلى الأبد، وآخرون يعودون إليها بين فترة وأخرى يبقون أيامًا أو ساعات. ليس هناك معي في الفندق غير (روزا) التي تشرف على البوفيه، تعد الشاي ووجبات رخيصة من الطعام تناسب جيوب الزبائن المتواضعة، وتعد الغرف لاستقبال زبون جديد.

كان يمكن أن تمر حياتي على هذه الوتيرة، أراقب من خلف الزجاج الحياة والبشر في كل نهار، واستقبل زبائن جدد وأودعهم في الغرف العشر للفندق... لو لم أركِ!. عندما التقت عيناي بعينيك، بدوتُ كمن يصحو من أثر مخدر طويل الأمد، ليعود إلى الحياة، ويبصر تفاصيلها على ضوء الشمس وضجيج الشارع وصراخ الباعة وزعيق السيارات.

كنتِ بصحبته هو، ترتدين فستانًا أزرق، هو الذي اعتاد أن يحل نزيلاً في فندقنا لليلة أو ليلتين بين فترة وأخرى مصطحبًا معه في كل مرة امرأة، كان مقطب الجبين على الدوام، يفتعل الجد، لم يمنحني فرصة للأخذ والرد معه في الحديث في أي مرة من المرات، لم أكن أهتم بمن ترافقه، ففندقنا قديم وهو يقاوم الزمن، لذلك لم يعنينا نوايا النزيل كثيرًا، كان الفندق قد اقترب من نهاية خريفه، لذلك كنا نصمت أمام نزق النزلاء ولا نسأل عن نواياهم، هذه هي الطريقة الوحيدة لبقاء الفندق على قيد الحياة أطول فترة ممكنة، لم يكن يهمني أن يعود النزيل وهو يتطوح من السكر أو يصعد إلى غرفته ومعه قنينة عرق، يشربها غارقًا في دهاليز عالمه الداخلي بين جدران غرفته.

في صباح من الصباحات وجدتكِ أمامي، كنت معه تبدين كطالبة فرت من المدرسة، تركتْ كتبها على رصيف لتنطلق في رحلة مجهولة العواقب والاتجاهات، تحيط بها العواصف والرياح من كل جانب. كنتِ تنظرين إليه بإعجاب، بل بولهٍ شديد!.

نظر إلي بلا مبالاة:

- مرحبا عباس!

ثم مد يده ليتناول المفتاح، مفتاح أية غرفة لا يهم، كان يمسك بيدك، ربما ليزيد من نار هيامك به، صعدتِ معه من درجات السلم التي تؤدي إلى الطابق الذي تقع فيه الغرف العشر. صعدتِ ولم تدركي بالجمرة التي بدأت تكوي أحشائي وأعماق أعماقي، كنتِ رشيقة كغزالة برية.

منذ ذلك اليوم أدمنت على الوقوف ثم الصعود في ساعات الليل إلى الغرفة التي حللتِ فيها مع ذلك الوغد.

في الليلة الأولى كنت أسمع ضحكاتك الجذلى، هل كنت تتلوين بين ذراعيه؟ مجرد التفكير بذلك كان يدفعني إلى حافات الجنون، أنا الذي اعتدت أن أنظر إلى كل شيء في الحياة بحيادية، بل وأحيانًا بلامبالاة.

لأول مرة في حياتي كنت أعيش حالة انحياز، انحياز إليكِ لسبب لا أعرفه. انحزتُ إلى شفتيك، إلى قامتك الرشيقة وأنت تصعدين أو تهبطين درجات السلم، متأبطة ذراع ذلك الوغد.

أصبحتِ تهمينني، كنتُ أبدو وكأنما أنا في حالة خفارة طوعية أمام غرفتك، أتجسس؛ بل أتلصص على كل آهة، على كل جملة كنت أسمعها، وأحاول أن أتخيلك وأنت تنطقين بها. أصبحت أجثم في الساعات التي أيقن بها من نوم بقية الزبائن، أمام باب غرفتك، كنت أود أن أصرخ بأعلى صوتي من وراء الباب: لا تصدقي هذا الوغد! فأنتِ لستِ الحب الأول في حياته، وأن عينيك ليست أجمل عينين شاهدهما في حياته، فهو زير نساء، وتعود أن يردد هذه الجمل ويلوكها في فمه كالعلكة.

كان صاحب الفندق غير عابئ بما يفعله النزلاء، بل يحرص على أن يردد أمامي في كل مرة أشكو فيها إليه سلوك احد الزبائن:

- يا ابني خلينا نأكل خبزتنا، لو حاسبنا الزبون على كل صغيرة وكبيرة، من يقصد هذا الفندق المنسي المتهالك، دعنا نكسب عدة قروش قبل أن ينهار وينهدم على رؤوسنا جميعا.

في إحدى المرات جلستِ في ردهة الفندق معه، أحضرت لكما الشاي بنفسي، لحظتها رفعتِ إليّ عينيك الساحرتين، وهمستِ من فمك الذي بدا كحبة كرز:

- شكرًا.

كلمة واحدة كانت كافية لإشعال الحرائق في جسدي، وعواطفي الخاوية من أية لمسة حانية منذ أن وجدت نفسي وحيدًا مع أبي السكير، بعد أن تركتنا أمي. كلمة واحدة من فمك الرقيق، كانت كافية لطبابة القروح وإزالة الصديد من شغاف قلبي وروحي، وأن تلقي قبسًا من ضوء باهر على أعماقي المظلمة المتألمة.

لكنكِ ليلتها بكيتِ، سمعتك من خلف الباب في خفارتي الطوعية، كنتِ تنشجين وأنتِ تقولين لذلك الوغد في تلك الليلة الممطرة مطرا مدرارا. سمعت صوته الكريه وهو يواسيكِ:

– لم أكن أتصوركِ بهذه السذاجة! ما أهمية ما حدث مادمنا سنتزوج؟ ألم تتركي البيت لهذا السبب؟!

– أجل أجل، لكنني كنت أريد أن يحدث ذلك في ليلة الزفاف!

أطلق ضحكة داعرة ساخرة:

– كما في الأفلام المصرية "اتمخطري يا عروسة"!

زادت حدة نشيجك، بدا صوته المهادن يحاول إقناعك:

– سيحدث يا حبيبتي، قسما بحبنا سيحدث كل شيء كما تريدين.

قلتِ له غير مصدقة:

– صحيح؟

– وحياة عيونك مليون صحيح!

انهرت على أثر صوت القبلات، كدت أحطم باب الغرفة وأنا أهتف بصوت يغطي عواصف تلك الليلة، أن أخطفك من بين ذراعيه القذرتين، لكن فورة غضبي هدأت، انشلّت حينما ارتفع صوت ضحكاتك علامة الرضا والقبل، وعاد صوت القبلات أقوى مما كان.
نزلتُ بسخط إلى مكتبي القذر لأرتشف قدحًا من الشاي الثقيل، دون أن انتظر الصباح كالعادة.

وحل اليوم المشؤوم الذي غادرتِ فيه الفندق، نزلتِ معه وأنتِ ملتصقة بذراعه، وفي عينيك نفس اللهفة التي أتيت بها إلى الفندق.
ألقى المفتاح أمامي بصلافة، ثم وضع أمامي أوراقًا نقدية، قائلاً بصوته الكريه:
- مع السلامة عباس، لم أنس البخشيش!

وغبتِ في لجة النهار،وصخب الشارع، ابتلعك الزحام كما يبتلع بحر هادر قاربًا وحيدًا، مضطربًا. غبتِ في لمح البصر عن عيني، لم يكن بمقدوري أن أصرخ وأمنعك من الذهاب معه، لم يكن بوسعي أن أرهنك وأزرعك مثل وردة ندية في أعماق نفسي القاحلة.

هرعتُ إلى غرفتك قبل أن تصعد الخادمة لترتيبها كما هي العادة عندما يغادر النزيل الفندق. أخذتُ أذرع الغرفة دون هدى، كنت أبدو مثل

شخص وديع صامت تمكن منه الجنون بعد دهر من الصمت أمام أكاذيب الدنيا وأضاليلها. كنتُ أجهل ماذا أريد، لكنني وجدت نفسي في وسط الغرفة التي كنتِ فيها منذ لحظات قبل أن تبتلعك أمواج الزحام. فتحتُ دون هدى خزانة الملابس، بحثتُ في الأدراج، كنتُ أجهل فعلاً عما أبحث، لكن أريجك كان لا يزال ينثال كالربيع في أرجاء الغرفة، تماما مثل أول يوم دخلتِ فيه الفندق.

كانت الشراشف على السرير ملقاة على الأرض، رفعتها ووضعتها فوق السرير، فجأة رأيت بين ثناياها منامتك، منامتك التي كانت تضم قبل لحظات جسدك الفاتن الممشوق، جلست للحظات أشمها، كنت أريد أن أسكر بأريجك.

منذ ذلك اليوم وهي ترافقني في غرفة نومي البائسة، أحتفظ بها في النهار كسرٍ مكتوم، في كل ليلة أضعها على السرير بعناية ثم أتمدد إلى جانبها، إنها أنتِ، ألثمها، أشمها، أملأ رئتي بأريجك المسكر، وبين دموعي المدرارة أحاول أن أقنع نفسي بأنكِ قد تعودين ثانيةً في مساء نهار ما.

تخلد البيوت إلى النوم، تنام الشوارع والأرصفة، تظلم آخر نافذة، بينما تظل نوافذ قلبي مضاءة في انتظار إطلالتك في يوم ما.

جنيف

26/4/2004

السادسة والنصف صباحا



مدام مادلين

رن جرس الهاتف عدة مرات قبل أن يرفع السماعة، فوجئ بأن الاتصال من قناة TSR التلفزيونية في جنيف، كان مخاطبه مدير القسم الثقافي للقناة، والذي أبلغه عن امتنانه لو تكرم في المشاركة في برنامج سيستضيف ثلاثة من الكتاب العرب من المقيمين في جنيف حول (مشكلات الكتاب العرب)، ولم ينس أن يبلغه أن بعض الكتاب اقترحوا اسمه.

شكر محدثه، بعد أن سجل في دفتر ملاحظاته تاريخ وموعد البرنامج، أحس بالحبور، فبعد سنين من التناسي والتهميش في وطنه، ها هي قناة تلفزيونية تتصل به بكل بساطة لمشاركته في البرنامج الثقافي دون محسوبية أو منسوبية أو وساطات، شكر في قرارة نفسه من طرح اسمه للمسؤولين في التلفزيون.

نام في تلك الليلة قرير العين، راضيًا عن يومه الذي اعتاد أن يقضيه دائمًا في حنين لا يهدأ إلى الوطن، والتجول في دهاليز الذكريات وأقبية الأيام الخوالي.

عندما حل اليوم الموعود كان ضمن الكتاب الثلاثة، والذي ينتمي كل منهم إلى بلد عربي معين، تحدث زميلاه عن سلبية المهجر على إبداعهم، وإحساسهم أحيانًا بالانزلاق إلى منزلقات اليأس.

عندما حان دوره كان السؤال الموجه إليه عن إشكاليته ككاتب في المهجر من الوصول إلى القراء. تدفقت الكلمات المختزنة بمرارة في ذاكرته وأعماق نفسه لتعبر عن ذاتها:

- عانيتُ شخصيًا من عدم نجاحي في الحصول على ناشر لأعمالي، فمعظم دور النشر في الدول العربية على عكس الدول الأوربية، باتت هي التي تطلب من الكاتب أن يدفع لها لطبع أعماله.

وأضاف بأسى:

- أصحاب هذه الدور يتصوروننا بسبب وجودنا في سويسرا أو أي دولة أخرى من أصحاب الملايين، بينما أنا مجرد لاجئ هنا، أعيش على المساعدة الممنوحة للعاطلين عن العمل.

في نهاية اللقاء سأل مقدم البرنامج، المشاركين عن كلمتهم الأخيرة في نهاية الحلقة، عندما حان دوره قال مازحًا:

- أتمنى أن يسعفني الحظ ويظهر ملاك على هيئة امرأة لتتبنى طبع أعمالي، كما جرت العادة في الغرب في تبني بعض الأثرياء لكتاب وموسيقيين ورسامين، في هذه اللحظة أحس أن ملاكي الرحيم الذي انتظره الآن يسمعني في بيت ما في جنيف!

مرت أيام، قضمت الدقائق الثواني، والساعات الدقائق، والساعات الأيام، إلى أن حل ذلك اليوم، الذي بدأ برنين الهاتف أيضًا.

- نعم، بونجور!

- مسيو، ألست الكاتب عادل رفيق، الذي ظهر الاثنين الفائت على قناة TSR؟

- نعم مدام، من حضرتك؟

كان في الطرف الآخر صوت نسائي، يعكس نضج صاحبته، ويكشف أيضًا، أنها على أبواب الكهولة.

- أنا ملاكك المنتظر!

لم يفقه شيئا، أي ملاك؟

فطنت هي إلى ذلك، وأحست بالحاجة للدخول لتفاصيل أكثر:

- لقد شاهدت البرنامج الذي تمنيتَ فيه أن يشاهدك ملاك يتبنى طبع أعمالك، أود أن أكون ذلك الملاك يا سيدي!

اعترته نوبة من الذهول، ماذا به، هل يحلم؟ أم أن الأمنية/الحلم الذي أطلقها على سبيل الدعابة في طريقها إلى أن تكون حقيقة؟

- هل من الممكن أن اعرف اسمك يا سيدتي؟

- أنا فاليري دومان، سأكون سعيدة لو التقينا في أي مكان تراه مناسبًا، كي نتحدث في تفاصيل الموضوع.

- يسعدني يا سيدتي أن أستقبلك غدًا في بيتي المتواضع، الساعة الرابعة مساءً لو كان ذلك يناسبك.
أخذتْ منه العنوان وأغلقت الهاتف بعد أن تمنت له يومًا سعيدا.

هل يحلم؟ أن تتبناه امرأة ثرية في بلاد الغربة، لهو في رأيه حلم الأحلام! تذكر، تشايكوفسكي والأرملة الثرية (نايجدا فون ميك)، التي تبادلت معه ١٢٠٤ رسالة خلال أربعة عشر عاما، لم يلتقيا خلاله إلا مرة واحدة في لقاء عابر، هل هو مقبل على علاقة من هذا النوع؟
ضحك في سره من انطلاقه وراء الخيالات، فما يبحث عنه مجرد ملاك يمول طبع كتبه، في تلك الليلة أطبق أجفانه وحالة فريدة من الرضا لم يعتد عليها، تمتلك حواسه ومشاعره.

في اليوم المحدد بالدقيقة والثانية، سمع رنة جرس الباب، كان يعلم إنها هي، فالسويسريون لا يحترمون شيئًا كاحترامهم لمواعيدهم.
وجدها أمامه، امرأة أنيقة، تقترب من الكهولة، أكثر ما يميزها شعرها الأبيض، المنتظم القصير، الذي تلامس خصلاته كتفيها.
جلست تنظر إليه بإعجاب، لم يره في عيني أي امرأة طوال حياته، أشعلت سيجارتها، ووضعت ساقًا على ساق، قالت:

- مسيو، في البرنامج قلت "في هذه اللحظة أحس أن ملاكي الرحيم الذي انتظره الآن يسمعني في بيت ما في جنيف"! لقد أصبت بقولك فقد كنت أشاهدك في تلك اللحظة، ورأيت من واجبي أن أكون الملاك الذي تبحث عنه.

قال لها، إنه عاجز عن شكرها، وإنه يعيش أجمل لحظات حياته، وهو لا يصدق أن أمنيته قد تحققت بمثل هذه السرعة والسهولة.

قالت له بهدوء وثقة:

- يا عزيزي الحياة مليئة بالصدف السعيدة، أريد منك أن تطمئن الآن بأن كل ما تكتبه سوف لن يبق حبيس أقراص الكمبيوتر والملفات، سوف لن تكون النقود عائقًا أمام وصول كتبك ومؤلفاتك إلى الناس، كم عملاً لديك ينتظر النشر؟

ردد كالببغاء:

- روايتان ومجموعة قصصية ومسرحية.

أخرجت بهدوء هاتفها النقال من حقيبتها، وبدأت بالحديث:

- مصرف كونتنال دو جنيف؟ مدام كريستين، أنا مدام فاليري دومان، أرجو إيداع خمسين ألف فرنك من ودائعي عندكم إلى حساب السيد عادل، حسنًا إنه موجود هنا، لحظة من فضلك.

أعطته الهاتف، بدا غير مصدق بأن المعجزات من الممكن أن تتحقق بهذه السرعة، هل بقي في هذا العالم سخاء على هذه الشاكلة؟ خمسون

ألف فرنك يودع في اسمه من سيدة جليلة لا تعرف عنه إلا ما رأته وسمعته في التلفزيون؟

سمع على الجانب الآخر صوتًا نسائيًا يقول:

– نعم مسيو، أرجو إعطائي اسمك الكامل والعنوان، لفتح حساب باسمك في مصرفنا، وإيداع المبلغ الذي أمرت به مدام فاليري دومان.

ذكر اسمه وعنوانه، وأغلق الخط.

كانت تنظر إليه بحنو، بعينين تتقطران طيبة وإنسانية، كانت بشعرها الأبيض المنتظم تبدو فعلا كملاك.

– مسيو، يجب أن أغادر الآن فلدي مواعيد أخرى عليّ الإيفاء بها، أنا أدير مركزًا صحيًا خاصًا، هذه بطاقتي وفيها عنواني، أرجو الاتصال بي دون تردد عند حصول أية مشكلة.

صافحها بحرارة وامتنان، التفتت إليه قبل أن تخرج:

– لا تقلق بعد الآن، سأكون فعلاً ملاكك الذي تبحث عنه.

عاش أسبوعًا من الفرح والبهجة، كانت خلاله روحه، التي عقدت زواجًا كاثوليكيًا منذ دهور مع الأحزان والكآبات، تبدو منطلقة، مرحة مثل عصفور صغير يتعلم الطيران لأول مرة.

وقف هنيهة أمام باب المصرف ثم دلف إلى الداخل، انتصب أمام الموظف بثقة قائلاً:

- سيدي أريد أن أتأكد فيما إذا كان ثمة مبلغ أودع باسمي في مصرفكم

- هل لديك حساب في مصرفنا؟

- نعم باسم عادل رفيق؟

عاد الرجل يضغط على أزرار الحاسبة بأصابع متمرسة، ثم عاد يسأله بعد أن نظر على شاشة الحاسوب:

- من أودع المبلغ باسمك رجاءً؟ هل من الممكن أن تتهجأ الاسم حرفًا حرفا فلربما هنالك خطأ ما.

أعطاه بطاقتها التي فيها اسمها وعنوانها، عادت أصابع الموظف بالضغط على الأزرار، ثم رفع إليه وجهه قائلا:

- آسف يا سيدي، ليست لدينا عميلة بهذا الاسم، أو حساب باسمك !

- لكن موظفة من مصرفكم هذا، أخذت مني بيانات لفتح حساب باسمي بناء على طلب مدام فاليري دومان!

- لقد تأكدت كما رأيت عدة مرات، ليس بين زبائننا من يحمل اسم مدام فاليري، وليس في سجلاتنا أي مبلغ مودع باسمك.

خرج من المصرف منكسرًا، وهو يحس أن الخيبات والانكسارات التي تعود عليها وتعودت عليه، عادت بقوة لتحاصر كل خلية في كيانه، وأن

العصفور الذي انطلق من روحه الكئيبة، سقط في أول محاولة له للطيران قبل أن يصل إلى أقرب غصن.
أخرج بطاقتها من جيبه وصمم أن يذهب إلى العنوان المثبت فيها، كان لا يريد أن يصدق ما سمعه وعاشه في المصرف قبل لحظات، هل من المعقول أن يتهدم الحلم الذي عاش في أفيائه أيامًا ويتحول بمثل هذه السرعة إلى مجرد سراب؟ ثم لماذا تخدعه مدام فاليري، وهي التي بادرته بالحديث عبر الهاتف وحضرت إلى بيته بأسرع مما كان يتصور؟!

نزل من سيارة الأجرة أمام العنوان المثبت في البطاقة، ما يراه الآن واقع لا يقبل الشك، مبنى يتوسط حديقة واسعة، سبقته إليه سيارة وقفت أمام المبنى.
عاوده الأمل حينما رآها تهبط بشعرها ذي القصة المتميزة، تقدم مسرعًا نحوها، بدا لحظتها وكأنه يهرع خلفها وهو يهتف:
– مدام فاليري! مدام فاليري!
التفتت إليه المرأة التي ترجلت من السيارة.
تجمد مذهولاً في مكانه، لا شيء فيها يشبه ملاكه غير الشعر الأبيض القصير.
وقفت المرأة تنظر إليه باستفهام:
– نعم يا سيدي.

- عفوا سيدتي، إنني أبحث عن مدام فاليري دومان.

- أنا مدام فاليري دومان.

مستحيل، إنها لا تمت بصلة إلى ملاكه إلا بشعرها.

- لكنكِ لستِ السيدة فاليري التي أبحث عنها.

- ليس في هذا المركز من يحمل هذا الاسم غيري، رجاءً دعني أرى البطاقة التي تحملها، أوه سيدي هذه بطاقتي!

- لكنك لست السيدة التي أبحث عنها، لا تتشابهين معها إلا في شكل الشعر.

توقفت المرأة برهة ثم سألته:

- هل تعرف من يعيش في هذا المبنى؟

أجابها بالنفي.

قالت له بهدوء:

- هذه مصحة صغيرة لمن يعانون من مرض انفصام الشخصية، وأنا مديرتها، نحاول تطبيع تصرفات الذين تنتابهم الحالات التي بين فترة وأخرى، وهي حالات ليست ميؤوسة منها، حيث تعقد جلسات جماعية مع المرضى ثلاث مرات في الأسبوع بحضور طبيب مشرف، تفضل معي رجاءً.

صعد معها سلالم المبنى، ثم دلفا معا إلى ردهة فيها عدة نساء، هناك وجد ملاكه، عجوز، تكاد تكون صلعاء بسبب قلة شعرها، تسمع مع

الأخريات حديث إحدى المريضات بحضور طبيب منبسط الأسارير، همست مدام فاليري في أذنه، بعد أن رأت أنه ينظر إليها:

– إنها تدعى مدام مادلين مارتان.

تهاوت آماله، تحطمت أحلامه وتهشمت مثل إناء زجاجي، لكنه لم يشعر بالحقد والغضب عليها، بل وقف يتأملها بشفقة، ثم أخذ ينزل بهدوء درجات السلم ليعود أدراجه، فجأة سمع صوتها يناديه:

– مسيو، مسيو!

كانت مع زميلة لها، اقتربت منه، ونظرت إلى عينيه، كانت فيهما نفس النظرات عندما زارته في منزله، كانت رفيقتها تردد دون انقطاع:

– سنفتح حسابا باسمك يا سيدي، الاسم رجاء؟ العنوان لطفا؟

وقفت أمامه، كانت تحمل في يدها اليمنى محفظة نقود صغيرة، وفي اليد الأخرى باروكة شعر قصيرة، كانت تبدو تماما مثل شعر مدام فاليري مديرة المصح، أخرجت من محفظة نقودها قائلة:

– أرجو يا سيدي أن تقبل مني كل ما أملك، لعله يفيدك.

وضعت في كفه عشرة فرنكات، شكرها وهو يضع الورقة النقدية في محفظته، تقدم منها وقبلها من وجنتيها هامسا:

– وداعا مدام فاليري!

غادر المبنى، بينما مشاعر متناقضة تتلاطمه، مشاعر مفعمة بالأسى والحزن والشفقة.

وقف أمام بائعة للزهور، أختار باقة ورد، لفتها البائعة بعناية في ورق شفاف أنيق.

- ١٥ فرنك رجاء يا سيدي.

دفع لها المبلغ ثم قال وهو يضغط على مخارج الحروف:

- رجاءً، ابعثي الباقة إلى المركز الصحي المواجه للمحل.

- إلى من تهديها يا سيدي هناك؟

- مدام مادلين مارتان رجاء!

جنيف
14/2/2005



أنا وجدي

لا أصدق ما يقولونه عن جدي الذي يناديني دائمًا بالعروسة، تعالي يا عروسة، اجلسي يا عروسة إلى جانب جدو، هاتي بوسة يا عروسة...
بأنه أعمى، فعيناه مفتوحتان، تضحكان حينما تنظران إليّ.
جدي ليس أعمى فهو يتوضأ، ويحمل سجادة الصلاة لوحده، ويعيدها إلى مكانها، ثم يجلس في غرفته مستمعًا إلى الراديو، متنقلاً بين المحطات، فهو يحب الراديو أكثر من التلفزيون، كما يدندن مع بعض الأغاني، عندها تبدو علامات السرور على وجهه وكأنه طفل صغير.
لست أدري لماذا عندما أسأل جدي عن الساعة تنظر أمي إليّ غاضبة، رغم أنه يرد على سؤالي، أساله عن الساعة، رغم إنني لا أفهم فيها، لكن ذلك يروق لي، خاصة عندما أجده كئيبًا جدًا في لحظات صمته.

جدتي ماتت قبل أن تراني بملابس المدرسة التي اشترتها هدية لي بمناسبة قرب بدئي بالدراسة، كنت أتمنى أن تعيش وتراني بها، لأنني وعدتها وهي تلبسني إياها بأنني سأصبح دكتورة وأعالجها من أمراضها التي كانت تشكو منها دائمًا. قبل أن تموت بشهر سقطت كل أسنانها، أصبحت تأكل الطعام بصعوبة، رغم ذلك لم تكف عن التدخين

والسعال، كنت أعلم وقت نهوضها من النوم في الصباح من نوبات السعال التي كانت تنتابها وهي جالسة على حافة سريرها، إلا أنها رغم ذلك كانت تشعل سيجارتها بعد هدوء نوبة السعال، قبل أن تشرب الشاي.

عند وفاة جدتي، كانت نساء الجيران يولولن، وكان الرجال يواسون جدي الذي يبكي بحرقة مرددًا اسم جدتي:

- آه ما كان أشد غرورك يا سعدية! كنتِ ترددين كل مرة بأنني سأموت قبلك، وتظلين أنت بعدي تصرفين راتبي التقاعدي، كم كنتِ مغرورة وواثقة من نفسك يا سعدية!

هرعتُ إلى حضنه، أخذت أقبل وجنتيه التي كانت دموعه تهبط إليهما مثل قطرات مطر، لم أكن أصدق أن جدو يحب جدتي إلى هذا الحد! فقد كانا دائمًا على خلاف، يرتفع صوتاهما لأتفه الأسباب:

- لا تبك يا جدو، لا تبك!

كنت أبكي معه وهو يشدني بقوة إلى أحضانه، وهو يردد بألم:

- سعاد، سعاد، ماتت جدتك، ماتت (ننه)!

بعد أن دفنوا جدتي، بقينا أربعة أشخاص في البيت، جدي وأنا، أمي وأبي، كنت قد سمعت من أمي بأن الموتى لا يعودون، لكنني رغم ذلك ظللت أنتظر إياب جدتي، وتمنيت أن يكون كل ما حدث مجرد حلم،

كم تمنيت أن أراها من جديد في فراشها تدخن وتسعل، وأن أرى دخان سيجارتها يخرج من بين شفتيها ومن فتحتي منخارها، كم كنت أسعد عندما كانت تخرج الدخان من فمها على شكل حلقات دائرية متلاحقة، كنت أبددها بضربات من يدي وأنا أضحك جذلى، كانت تفعل ذلك لإسعادي.

لم تعد جدتي أبدًا، وعلمت أن أمي كانت صادقة عندما قالت لي إن الموتى لا يعودون.

جدي يقول عند سماعه أزيز الطائرات الأمريكية وأصوات الانفجارات بين فترة وأخرى:

- يبدو أن سماع هذه الأصوات يوميًا أصبح قدرًا للعراقيين.

ثم يغرق في قراءة أدعية طويلة، لا أسمعها، لكنني أعلم أنه يقرأها من استمرار حركة شفتيه.

غضب عليّ والدي وأنا أسأل جدي كالعادة عن الساعة قائلاً:

- لا تسألي بعد اليوم جدو عن الساعة!

كانت نظراته إلي مخيفة أفزعتني إلى درجة إنني لم أسأله عن سبب زعله مني، لكنني رغم ذلك ظللت أسال جدي في كل مناسبة وأنا في حضنه:

- جدو كم الساعة؟

كان يرد علي بهدوء وابتسامة طافحة على شفتيه: الرابعة.
يقولها دون غضب، دون انفعال أو نرفزة، فأروح أسأل نفسي، إذن لماذا غضب علي أبي وجحدني بواحدة من نظراته التي تتقطر غضبا؟

يحب جدي أن يمتحنني في الحساب، لأنه يريدني أن أكون شاطرة فيه، لأن أعمامي وعماتي كانوا جميعًا صفر في الحساب كما يقول جدي.
يسألني جدي ١ +١، أقول ٢، يطبطب على ظهري مشجعًا:
- عفيه عليك يا سعاد، ٣+١؟
- أقول: ٤
فأسمع منه (عفية) جديدة، لكنني لاحظت أنه لا يحب القراءة، فعندما أحضرت له كتاب القراءة الذي استعرته من صديقتي (كولر) كي أتمرن عليه عند بدئي بالدراسة في نهاية صيف هذا العام، طلبت منه أن يعلمني، لكنه غرق في صمت مطبق للحظة، وكأنني طلبت منه شيئًا صعبًا للغاية، ثم نظر إلى وجهي قائلاً بهدوء:
- اعذريني يا عروسة، فنظارتي ليست معي.
انتبهت إلى أن جدي لم يعد يلبس نظارته الطبية منذ فترة طويلة، قلت له:
- هل أحضرها لك يا جدو؟
قال لي بحنان وهو يداعب شعري:

- لا يا عزيزتي فقد أوصاني الطبيب بعدم ارتدائها، لأنها أصبحت تؤذي عيني وتسبب لها الحساسية.

غرقت في ذراعيه، رحت أداعب ذقنه الذي طالت لحيته، قبلني من وجنتي:

- شعر ذقنك يؤلمني يا جدو، هل أدعو أبي ليحلق ذقنك؟

هز رأسه بالنفي، كان أبي هو الذي يقوم بحلاقة ذقن جدي، بعد الرعشة التي أخذت تصيب يدي جدي، كان أبي يغمر ذقنه برغوة صابون كثيف، ويمرر الموس عليه، وهو جالس بين يديه مثل طفل وديع.

جدي يحب أزهار الحديقة، ويسقيها بنفسه، لكنني لم أره يفعل ذلك منذ مدة طويلة، بل أخذ يفضل الجلوس وحيدًا في غرفته قرب الراديو، يسمع الأخبار والأغاني القديمة، وهو يغفو أحيانًا فأذهب لإيقاظه.

اليوم قطفت باقة من الورود، وقدمتها له، أخذها وبدا يشمها بعمق وهو يقول لي:

- ما أجمل هذه الورود الحمر!

استغربت كثيرًا، فالورود كانت صفراء اللون! قلت في نفسي لعله كبر في السن، ولم يعد يميز الألوان بدقة خاصة بعد أن ودع نظارته إلى الأبد.

صحوت فجأة في الليل على صوت صرير أرجوحة الحديقة، كانت تصر برتابة، كان صريرًا غريبًا ومخيفًا في عتمة الليل، اعتقدت أن ثمة ريح قوية في الخارج تحرك الأرجوحة يمنة ويسرة في سكون الليل وصمته القاتم. أصغت السمع جيدًا، لم أسمع للريح صوتًا، لكن صرير الأرجوحة في ظلمة الليل كان مستمرًا بشكل غريب ورتيب... جيك، جيك، جيك...

أطللت برأسي من النافذة وأنا مرعوبة. كان ضوء القمر ينساب من خلف الستارة إلى الغرفة، أزحت الستارة جيدًا لأرى ما يحدث. لجمت المفاجأة لساني.

في ظلمة الليل التي لا ينيرها إلا إطلالة القمر من بين عقد الغيوم المتناثرة في السماء، صعقت وخفت كثيرا، فقد كان جدي يقف وسط الحديقة وهو يهز الأرجوحة الفارغة، يضحك بانشراح وجذل، سمعت صوته الذي كان أقوى من صمت الليل.

– آه يا ملعونة، لقد طاب لكِ الجلوس على الأرجوحة، أليس كذلك؟، لماذا تصمتين يا عروسة؟ سأدفعك بقوة أكثر، ستتحولين إلى طائر صغير يحوم حول شجرة التين القريبة من الأرجوحة، هيا تمسكي جيدًا، سأدفعك نحو السحاب، استعدي للطيران هيلا هوب، هيلا هوب، حسنًا فعلنا بنهوضنا مبكرين من النوم قبل والديك الكسولين، أليس كذلك؟

مع كل دفعة للأرجوحة كان الصرير يزداد جيك جيك جيك، وكان صمت الليل ينشر صريره، ويزيد من رعبي.

كان جدي يقف وحيدًا وسط ضوء القمر، يقهقه ويضحك ويتحدث إلى الأرجوحة الفارغة، ازددتُ رعبًا بين ضحكات جدي وصرير الأرجوحة الصدئة، صرخت بأعلى صوتي:

– ماما، ماما!

ثم انطلقتُ بسرعة نحو غرفة والدي بعد رأيت الضوء يشتعل فيها على حين غرة.

جنيف
11/10/2004
السادسة والربع صباحا



حلم ميداس

(تقول الأسطورة إن شحاذًا مرّ بميداس ملك اليديين، فأغلظ الملك له القول، فدعى الشحاذ الله أن يحول كل شيء يلمسه الملك إلى ذهب؛ كل شيء، بدأ كل شيء تلمسه يد ميداس يتحول إلى ذهب، ابنته تحولت إلى تمثال من ذهب عندما ربت على شعرها، وكذلك كل من لمسهم من أصدقائه ومعارفه، على أثر ذلك يطلب الملك من الحكماء أن يسعفوه ليتخلص من اللعنة التي حلت به، فينصحونه أن يغسل يديه في النهر الكبير، على أثر ذلك يحل السر واللغز الذي تحمله مياه النهر ثم إلى الشاطئ الذي ما يلبث أن تنتشر حوله أرض شديدة الخصوبة).

أعمل موظفًا في البلدية، أعيش في بيت متواضع، براتب متواضع مع زوجتي وأطفالي وحماتي. زوجتي ربة بيت، لا تكف عن التذمر والشكوى من تفاقم أعمالها المنزلية، وهي صعبة المراس، رغم أنها كانت عند زواجي منها مجرد ملاك وديع.

تمت خطبة ابنتي وسيلة، في الأسبوع الماضي، خطيبها يعمل كمصلح سيارات، يدعى سليمان، وهو إنسان طيب، وفيما إذا استمرت حالته المادية بالتدهور فهو معرض إلى أن يسكن معنا!

أما حماتي خديجة، فقد التصقت بحياتنا ومنزلنا بشكل طفيلي لا حد له، منذ خمسة عشر عامًا، ولم تنفع كل جهودي في التخلص منها، فهي لا تألوا جهدا في توجيه زوجتي إلى كل ما هو ضدي، لا تعاون زوجتي في أعمال البيت البتة، بل تقضي النهار أمام النافذة.

كل جهودي في توفير حياة معقولة لعائلتي باءت بالفشل، لم أعد أفكر مؤخرًا إلا بالنقود.

ما سأرويه لكم بدأ في مساء يومٍ ما:

كنتُ عائدًا كالعادة بعد خروجي من عملي في التجول بين الشوارع متأملاً واجهات المحلات التي تبيع سلعًا غالية الثمن، رأيتُ شحاذًا يبسط كفه أمامي، فمنحته عدة قطع معدنية، شكرني الشحاذ قائلاً:

– ليحول الله القادر على كل شيء؛ كل ما تلمسه إلى ذهب يا سيدي!

ثم اختفى في الظلام فجأة. بدا وكأنه ظهر أمامي ليقول لي هذه الجملة ثم يختفي.

ابتعتُ عدة أرغفة من الفرن المجاور لبيتي، كنتُ حريصًا في لحظات الضيق أن أتناول كأسين من العرق، لاحظت كالعادة أن جميع الأضواء في المنزل مشتعلة، وكأن ثمة مهرجان فيه، فكرت ما سيكلفني ذلك من أجور، طرقت الباب، فتحت حماتي الباب وهي تقول لي:

– لماذا تأخرت؟ أين كنت حتى هذه الساعة؟

ناولتها الأرغفة دون أن أحدثها، ولمست يدي ساعدها، وحدث في هذه اللحظة شيء لا يصدق على الإطلاق، تحولت حماتي إلى تمثال من الذهب الخالص زنته ١٢٠ كغم.

أصبنا جميعًا بالذهول أمام التمثال الذهبي لحماتي، اقترب ولدي مصطفى وهو يتحسس على التمثال قائلاً: يا إلهي إنه من الذهب الخالص!

غرق حماي الذي قضى حياته مهملاً، مغضوبًا عليه دائمًا، في نشيج من البكاء وهو يصرخ دون وعي:

- خديجة، خديجة! ماذا جرى لكِ؟ ردي علي؟

انتقلت نوبة البكاء إلى زوجتي:

- لأول مرة في حياتي، أرى شيئًا يتحول في يد زوجي إلى ذهب!

آه لكم بدأت تخطر في بالي من أفكار جنونية!

لو قمنا ببيع هذا التمثال الذهبي، فسنكون من أصحاب الملايين، خدم وحشم وقصور، سأبتاع لنفسي سيارة فارهة، وأغلى أنواع الفراء لزوجتي نورية، وسأقيم ليلة من ليالي ألف ليلة وليلة في أفخم فنادق المدينة في حفلة زواج ابنتي.

قلتُ مخاطبًا الجميع بهدوء وروية:

- التزموا الهدوء رجاء، لقد تحولت حماتي بقدرة قادر إلى تمثال من الذهب الخالص، لنكن واقعيين ماذا سنكسب لو أبقينا التمثال هكذا؟ لكننا لو فعلنا العكس فإن مليارات الدنانير ستنهال فوق رؤوسنا، سنتحرر من الفقر إلى الأبد، هذه أول مرة يبتسم فيها الحظ في وجوهنا.

صرخت زوجتي في وجهي بكل ما في صوتها من قوة:

- مدحت! ما هذا الهراء؟ هل أصابك الجنون؟ هل تعتقد إنني سأوافق على بيع أمي؟

- وما الفائدة التي سنجنيها من وقوفها كالصنم هكذا في زاوية الغرفة؟

قالت ابنتي:

- لربما ما حدث لها شيء مؤقت، وقد تعود إلى حالتها الطبيعية بعد فترة.

أما حماي فقد كان مستمرًا في الصراخ، يقذف نفسه يمنة ويسرة ويردد دون انقطاع:

- أريد زوجتي، إلهي أعد لي زوجتي رجاء!

ما أراه الآن ليس حماتي، بل تمثل من الذهب الخالص عيار ٢٤ زنته ١٢٠ كغم، وكل ما عدا ذلك باطل ووهم.

تقف المليارات وأكوام متكدسة من الدنانير أمامي، ها قد حصلت المعجزة الإلهية أخيرًا، فلماذا لا يرونها؟

كان يجب أن أسيطر على الموقف، صرخت في وجه الجميع:

- كفوا عن البكاء والنحيب! لقد قضيت سنوات طويلة وأنا أكد وأتعب، في قيظ الصيف وبرد الشتاء القارص من أجل أن نقف على

أقدامنا، لا فائدة من البكاء والنحيب، لمجرد أن حماتي تحولت بقدرته جل وعلا إلى تمثال ذهبي بلمسة من يدي، إنها الحكمة والمعجزة الإلهية التي تريد أن تنقذنا من براثن العوز، يجب أن تروا هذه الحقيقة الجديدة التي ستفتح أمامنا أبواب الرخاء.

قال صهري سليمان:

- لكن تمثال الخالة خديجة معرض للسرقة في أي لحظة، لا تنسوا هناك مجرمون ينحرون البشر مقابل مائة دولار، لو علم أحد بأمر التمثال فسينحروننا جميعا في سبيل الاستيلاء عليه، من الأفضل إيداعه في مصرف أو التأمين عليه.

لم أكن أتصور أبدًا أن يكون صهري بهذه العقلية المتفتحة.

قلتُ له:

- دعنا نسحب أولاً التمثال إلى الداخل قبل أن تراه عيون الجيران الفضولية.

كان التمثال ثقيلاً للغاية، لم نستطيع إلا أن نزيحه قليلاً من مكانه.

أحسستُ في تلك اللحظة بأنني أنطلق بسرعة الريح في سيارتي الجديدة، أعيش في فيلا فاخرة، أنتقل بين بلدان العالم، على متن طائرات ضخمة، على الدرجة الأولى دائمًا.

استطعنا سحب التمثال إلى الداخل، هتفتُ بالجميع:

- غداً سأودع التمثال في مصرف، سأستأجر سيارة لنقل التمثال.

اتهمتني زوجتي بالخيانة والجشع:

- لم أكن أتصور أن تبلغ بك الخيانة والجشع إلى هذا الحد! أن يعمي الطمع عينيك، هل كنت ستفعل نفس الشيء لو تحولت أمك أنت إلى تمثال؟

ثم راحت في نشيج مستمر.

أما حماي فكان يردد كأسطوانة مشروخة:

- لن أفترق عن زوجتي، إنها ملكي ومليكتي!

أصابتني نوبة مفاجأة من الانفعال:

- هل أصبحتْ ملكًا لك بعد أن حولتها إلى تمثال من الذهب الخالص؟!

تدخلت زوجتي قائلة:

- اخفضا من صوتيكما، سيسمعنا الجيران.

كانت النوبة العصبية التي انتابتني لا تزال في أوجها:

- الجيران فقط، بل سيسمعنا قاطعو الطرق الذين يقبضون على الأرواح من أجل بضعة دولارات، وسيسمعنا الجنود الأمريكان، ولربما سيستولون على التمثال بحجة أنه من المال العام، وسيقولون، لولا تحريرهم لنا لما كان بإمكاننا اكتشاف هذا التمثال الذهبي الضخم، الذي سيعتبرونه من الكنوز السومرية، ولربما سيقطعونه إلى أجزاء ليحملونه إلى متاحفهم!

أمضينا ليلة عصيبة، كان الكل يعزف من وتر مغاير، نشاز، كنت ألقي بين حين وآخر نظرة على التمثال.

آه كم كان يلمع ببريق جميل وأخاذ وسط الغرفة المعتمة، التي كانت تقف في وسطها بصمت مهيب!

عدتُ جديدًا إلى المناورة:

- لنكن واقعيين، قبل هذه المعجزة، كانت عرى علاقاتنا العائلية على وشك الانقطاع بسبب تواضع راتبي، لقد تحولت حماتي إلى تمثال من ذهب دون أن يكون لأي واحد منا ذنب في ذلك.

سمعت حماي يقول:

- كانت حتى في حياتها امرأة كالذهب.

صمتُ ولم أعلق على ما قاله، لم أشأ أن أذكره بمعاركهما اليومية المستمرة، والعبارات المهينة التي كانت تكيلها له.

بدا الجميع متفقًا على ضرورة إيداع التمثال في مصرف، ولكن كيف يمكن ذلك في وسط انعدام الأمن وانتشار الفوضى والسرقة في كل مكان؟ حتى المصرف لم يعد آمنًا.

كلما ازددت تفكيرًا في الواقع المتردي، ازددت قناعة بصعوبة نقل التمثال إلى مكان آخر أو بيعه، لم يبق من أمل إلا تقطيعه إلى أجزاء صغيرة وبيعها على هذه الشاكلة للصاغة أو المهربين.

فجأة سمعت تعليق حماي الذي بدا وكأنه بدأ يستوعب الواقع الجديد.

– ترى كم هي قيمته الحقيقية؟ ألن نتعرض إلى الغش والتضليل فيما لو حاولنا بيع التمثال؟

– إن وزنه من وزن حماتي، وسنعرف قيمته الحقيقية من سعر الذهب المعلن في البورصة.

قال ولدي الصغير:

– ترى هل له قيمة أثرية؟

نهرته زوجتي:

– صه! لا تكن قليل الأدب!

قال صهرنا:

– من الأفضل تحويل قيمة التمثال إلى عملة سائلة، وإيداع المبلغ في المصرف، فهو أسهل وأيسر من مخاطرة نقل التمثال إلى المصرف، ونستطيع أن نعيش برخاء من قيمة الفائدة الشهرية للمبلغ المودع.

نهرته زوجتي:

– احفظ أدبك يا فؤاد!

قال حماي وقد بدت ملامح الخوف بادية على محياه:

– وماذا لو انتقل الأمر إلى المخفر؟ ماذا سنقول لهم، إذا سألوننا: كيف تحولت هذه المرأة إلى تمثال من ذهب؟ من سيصدق روايتك يا صهري العزيز؟!

إنه تفكير منطقي حقًا، وواقعي في نفس الوقت.

علّقت زوجتي بدورها:

- قد يظنون إننا سرقناه، وبسبب ذلك سنقضي بقية عمرنا وراء القضبان.

طرأت على ذهني فكرة مفاجأة، قلت لهم:

- اهدؤوا قليلا! لا يمكن إيداع التمثال في المصرف لخطورة هذا العمل، أو تجزئته إلى قطع، لأنه عمل شاق للغاية ويحتاج إلى خبرة، إضافة إلى أنه ليس من اليسير بيع تمثال ذهبي بهذا الحجم، الأفضل هو إخفاء التمثال حاليًا عن الأنظار، انتظارًا لفرصة أفضل.

علق ولدي الصغير:

- سيظنون بأننا سرقناه من منطقة أثرية.

قلت لهم بعد أن أعجبت بتعليقه:

- سيظنونه تمثال إحدى الآلهات، من الأفضل إخفاءه حاليا عن الأنظار، لننم الآن، ونخفي كل شيء، لقد نال التعب منا جميعًا.

غطينا التمثال ببساط طويل ودفعناه بصعوبة تحت السرير الذي كانت ترقد عليه حماتي قبل أن تتحول في هذا المساء الغرائبي إلى تمثال من الذهب الخالص.

لم ينم أحد منا، وخاصة أنا، فقد كان النوم يغادر جفوني كلما تخيلت الثروة التي ستهطل علينا كالمطر، وتحولنا في غمضة عين من عالم

الكفاف إلى عالم الغنى والثراء، وأصحاب قصر منيف يطل على دجلة، وتحقق لنا ما لم نحققه حتى الآن، من مشاهدة الدول الأوربية، وزيارات كازينوهات القمار في موناكو، سوف لن أدخن إلا سيجار هافانا.

أخذتُ أفكر مجددًا بنفس التساؤلات التي كنت أفكر بها قبل لحظات، هل من الأفضل قطع التمثال إلى سبائك أم بيعه كما هو؟ فمن المستحيل بيعه كتمثال امرأة من الذهب الخالص.

اكتشفت أن الجميع يقظى مثلي بعد أن سمعت صوت ولدي يقول:

- هل سنبتاع منزلاً جديدًا بثمن التمثال يا أبي؟

بدون شعور وبطريقة آلية وجدت نفسي أرد عليه:

- بالطبع يا عزيزي، سنشتري منزلاً فخمًا، في أفخم منطقة بكركوك، ومنزلاً أفخر على ضفاف دجلة.

انضمت إلينا زوجتي التي كانت تنهر الجميع، وأخذت بدورها تردد طلباتها:

- وسنشتري غسالة ملابس وغسالة أطباق ومكواة بخارية وفيديو.

أخذت أربت على كتفها بحنو:

- ما أبسط أحلامك وأمانيك يا حبيبتي!، سيكون لك خادمتان بدلاً من واحدة، لن تنشغلي نفسك بعد الآن بالطبخ والغسيل والكي.

قال حماي؛ الذي اكتشفت أنه لم ينم أيضًا:

- وأنا سأبني جامعًا.

هذه أحلامهم، أما أحلامي فمن نوع آخر... فتيات كحور الجنان وأنا بينهن، أرتشف أفخر أنواع النبيذ من قدح بلوري لم يمسه فم من قبلي، وسيقوم غلام بمعاونتي على ارتداء ملابسي، ويحمل لي خفي عندما أعود تعبًا إلى البيت، كما ستقوم حسناوات يابانيات أو فليبنيات بتدليك جسمي، وسيأتي الحلاق كل صباح إلى قصري ليحلق لي ذقني فقط، سأنام داخل منامات حريرية، ولن يغيب الكافيار الذي أسمع به ولم أره أو أذقه وكل أنواع الأسماك البحرية والنهرية الغالية والنادرة عن مائدتي.

سمعت صهري يهمس في أذني:

- لماذا لا تلمس يا عمي أشياء أخرى في المنزل؟ افعل ذلك بصدق فلربما يتحول بعضها إلى ذهب، ويكون بيعه أو تجزئته على الأقل أسهل.

قلت له.

- أنا مستعد.

قالت زوجتي:

- هيا يا عزيزي، المس طست الغسيل أولاً.

قمت من الفراش، واتجهت إلى الحمام، لمست الطست مرات بدلا من مرة واحدة، لكن المعجزة لم تحدث.

ترى هل يحدث ما حدث لحماتي هذا المساء عندما ألمس كائنًا حيًا، تجري الدماء في شرايينه وعروقه؟

صرخوا بصوت واحد:

- المس قطة البيت!

أحضر ولدي القطة المنكمشة على نفسها، أغمضتُ عيني، ومددتُ يدي ألمس، بل أداعب جسمها الناعم الجميل، وكانت النتيجة خيبة أمل مضاعفة.

علقت زوجتي شامتة:

- يبدو أنك فقدت قدرتك.

أجبتها متذمرًا:

- ألم أحول أمك بوزنها الثقيل إلى تمثال من ذهب؟ لماذا تطمعين بالمزيد ولا تقتنعين بالثروة الطائلة الموجودة لدينا؟ إن أعمارنا جميعا سوف لن توافينا لنرى نضوب المليارات التي سنجنيها قريبا بإذن الله.

عدت إلى فراشي من جديد، وتمددت زوجتي إلى جانبي، همست في أذنها:

- حبيبتي سترتدين أغلى أنواع الفراء، سأملأ خزانة ملابسك بآخر صيحات الأزياء الباريسية.

همست زوجتي راضية:

- وسأقتني أيضا أغلى العطور.

وافقتها على الفور:

- بالتأكيد، بل يجب عليك شراء كل ما تبغين من ملابس وعطور وأحذية مستوردة فاخرة، فلا أزال أتذكر أنك ترتدين نفس المعطف منذ سبع سنوات!

غفوتُ قليلاً والأفكار تتزاحم في رأسي، وأنا أستعرض فكرة وراء أخرى وحلمًا وراء حلم آخر.

نهضتُ في ساعة متأخرة، واتجهت إلى المرحاض.

الكل كانوا نياما بعد أن تغلب عليهم سلطان النوم، أردت أن ألقي نظرة على التمثال الممدد تحت السرير الذي كان يغفو فوقه حماي، كان قد وضع ساقه الاصطناعية إلى جانبه، تمامًا في المكان الذي كانت ترقد فيه زوجته، كان يتنفس بهدوء.

أحسست برغبة عارمة لرؤية التمثال، تمددت تحت السرير، وأزلت جزءًا من غطاء التمثال، سطع بريق ساحر أخاذ، يا إلهي ما أروعه من مشهد!

كان نور القمر ينساب إلى الغرفة، مددت يدي لأزيل جزءًا من غطاء التمثال، لأمتع نفسي ببريقه الذهبي. لمست يدي رقبة التمثال، واستغربت أن تكون لينة وطرية، ذهب لين وطري!

فجأة سمعت الصوت الذي لم أسمعه منذ المساء:

- ملاذا تفعل هنا أيها السكير؟ هل أثقلت في الشرب كالعادة؟ ألا تخجل من نفسك؟

لم أصدق ما أراه، اختفت المعجزة، وعادت حماتي كما كانت متجبرة وسليطة اللسان، أزاحت الغطاء عن نفسها وخرجت من تحت السرير، وهي ترغي وتزبد.

في تلك اللحظة تهدمت دنياي، وتحطمت أحلامي وتحولت أمنياتي التي كنت أسبح في بحارها قبل لحظات إلى صحراء قاحلة.

أخذت تصرخ بأعلى صوتها وكأنها مصابة بالحمى، استفاق على أثره جميع من كان في المنزل ماعدا حماي، كان الجميع ينظر إليها كما ينظر الخاسر بعينين زائغتين ضياع أحلامه وأمانيه.

صرخت بنا جميعا:

- ما الذي دهاكم؟ لماذا تنظرون إلي باستغراب هكذا؟

قالت زوجتي:

- لا شيء هناك يا أمي، اهدئي رجاءً وحاولي النوم.

تناولت حماتي قدحًا من الماء البارد، ثم تمددت على فراشها، استغرقت بعد فترة قصيرة في نوم عميق.

لم يعلق أحد في المنزل في اليوم الثاني على ما حدث، وكأننا فقدنا القدرة على الكلام، ولا أدري لحد الآن ما الفائدة التي جنيناها من الحادثة الغريبة غير إطلاق العنان لأحلامنا وأمنياتنا؟

اكتشفتُ أن حماتي لا تتذكر على الإطلاق ما حدث، عادت تسألني كعادتها عند عودتي إلى البيت كل مساء:

- أين كنت حتى هذه الساعة؟

جنيف

5/6/2005

العاشرة صباحا



حديث مرآة

مرّت وجوه كثيرة من أمامي، لا أتمكن من عدها وحصرها، وجوه تطلعتْ إلى ملامحها، مشطتْ شعرها، ألقت بنظرة على نفسها، وجوه نظرت إليّ، لترى نفسها.

الوجوه القبيحة لم تكن تطيل النظر، وكأن أصحابها على عجل، بينما الوجوه الجميلة والوسيمة كانت تطيل النظر إلى وجهي، وكأنها تتلذذ برؤية ملامحها، كنتُ أعكس ملامح الجميع كما هي، دون تزويق.

لكنني إن أنسَ، فلن أنسَ تلك المرأة الحسناء التي كنت أزين صالة الجلوس في بيتها، آه كم كانت جميلة!

كنتُ أتقاسم معها اليوم بكل تفاصيله، كانت غرفتها تبدو في الصباح شبه معتمة، كانت تجلس بهدوء متأملة الزقاق الذي كان يبدو بدوره مثل غرفتها، هادئًا.

بمجرد نهوضها من النوم كانت تحرص على أن تحدق فيّ بعينيها الساحرتين، ربما تجاوزت الخامسة والثلاثين بقليل، كانت سمراء ساحرة، تحرص بعد تناولها الفطور أن تجلس أمامي، وتدخن بشرود.

كانت أحيانًا تقترب مني وتتفحص أسفل جفنيها بتمعن وقلق.

في كل مساء كان يأتيها رجل، محملاً بالعديد من أكياس النايلون، كانت تفضل الجلوس وحيدة في البيت، لم تكن تحبذ الخروج كثيرًا، ولربما الرجل الذي يزورها كان السبب في ذلك، كانت تسمع أحيانًا أغان قديمة من الجرامافون الموجود في زاوية صالون البيت.

في كل نهار، كانت تضع سيجارتها في المنفضة الخضراء القريبة مني، تقوم بوضع المساحيق على وجهها بتأن ثم تمرر فرشاة الكحل على أهدابها، هدب هدب، وترسم أطراف عينيها الساحرتين بقلم أسود، وفي نهاية المطاف تضع الحمرة على وجنتيها وفمها الذي يبدو مثل حبة كرز مكتملة النضج.
شعرها الأسود الطويل، كان يزيد من سحرها وبهاء وجهها، كانت خصلاته تنساب على كتفيها مثل نهر مظلم.

كانت تتجول بمنامتها في البيت، كانت تبدو خلال النهار وكأنها مخلوقة لتعيش في الليل فقط، لذلك كنت أحس إنها تستعجل قدوم الليل، وتضيق بالنهار والشمس.

كنت أعلم أدق التفاصيل عن حياتها اليومية التي تقضيها بين جدران البيت، كنت أعلم متى تضع براد الشاي على النار، ومتى ترتشف

القهوة، لم تكن تتناول أكثر من فنجانين يوميًا، في نفس تلك اللحظات كان من المعتاد أن يدق جرس التليفون وخاصة في أوقات الظهيرة، كانت تهرع بلهفة وترفع سماعة التليفون وتتحدث بغنج ودلال مع ذلك الرجل، أحيانًا كنت أحس من نبرات صوتها إنها غاضبة أو على وشك الخصام معه. كان من الواضح أنه متزوج، لكنه في نفس الوقت مغرم بهذه المرأة الفاتنة أيضًا.

وفي الحقيقة كان الرجل هو المغرم بسماع تلك الأصوات القديمة التي كانت بالكاد تنطلق من الاسطوانات المغبرة، كان يمسحها كل مرة باهتمام، ثم يجلس ليستمع إليها بشغف، وكأنه يسمعها لأول مرة، وكانت هي أيضًا تسعد بذلك وتشاركه احتفاءه بطقوسه في الترحيب بالصوت المنسي، الذي ينطلق من الأسطوانة، وكأنه يحمل حشرجات زمن ولى ومضى دون رجعة.

كانت تبتسم لأنه يبتسم،وهي تتابع بعينيها الخضراوتين انشراحه وانبساطه في تلك السويعات التي يستمعان فيها إلى تلك الأغاني القديمة لمرات ومرات.

أحيانًا كانا يشاهدان معًا أفلامًا قديمة بالأسود والأبيض، في بعض مشاهد تلك الأفلام، كان يمسك بيدها، ويتأمل بفرح عينيها الجميلتين وهو يقول:

- شاهدت هذا الفيلم في سينما الحمراء عندما كنت طالبًا في الدراسة المتوسطة، هذا فلم شاهدته مع أمي، لكم كنت أحب عتمة السينمات، فليس ثمة عتمة أجمل منها!

أحيانًا كان يقهقه:

- لم أكن مولودًا عند عرض هذا الفيلم، حتى سذاجة هذه الأفلام تثيريني، وتترك مساحة كبيرة من الهدوء والرضا في داخلي.

لا أدري لماذا كان الرجل أحيانًا يجهش بالبكاء، وهو يدفن رأسه في صدرها؟ ثم يتوجهان بصمت إلى غرفة النوم، وكأنهما لم يكونا المخلوقين السعيدين قبل لحظات.

مع كأس النبيذ والأفلام المنسية والأغاني، كانت تتأمل التماعة عينيه وهو يقول لها:

- لم يبق أحد من أبطال الفيلم على قيد الحياة يا حبيبتي، نحن الآن نشاهد أمواتًا، نشاهدهم يمشون ويعشقون ويتبادلون القبل.

كانت معتادة أن تدخن سيجارتها بهدوء وشرود، وهي تتأمل دخانها الذي يتلاشى رويدًا رويدا، ثم تتصل بإحدى صديقاتها، وكنت أسمعها وهي تتذمر، بينما الدموع تتلألأ في عينيها الخضراوتين الساحرتين.

– مقبولة، صدقيني أنا امرأة سيئة الحظ، لا أدري لماذا لا أكون امرأة سعيدة مع الرجل الذي أحب؟ لقد خابرني قبل قليل فزاد من شقائي وتعاستي، إنني أقضي كل نهاري في انتظار لا ينتهي لحلول الليل الذي يأتيني به، ألبس أحلى ما لدي، أضع أجمل العطور، وأهيئ مائدة عامرة، وأجلس لأنتظره، آه ما أقصر ساعات الليل، فهي تنقضي بعد هنيهة من حلوله، فيرحل هو معه، وأجلس لانتظار ليل آخر يحمله إلي، أنا كالعادة وحيدة في البيت، أتدرين ماذا أريد؟ أريد أن أتأبط ذراعه وأتجول معه في الشوارع في وضح النهار وعلى مرأى من الجميع، نذرع الشوارع ونتأمل المحلات واختار معه أشياء للبيت، ستائر، منافض، خزانة ملابس وستائر للمطبخ.

كان الحزن يجثم عليها بمجرد أن تنهي حديثها، وتعيد سماعة الهاتف إلى مكانه، كانت تقف أمامي وتنظر لي طويلا.

ومرة أخرى يبدأ النهار الذي يتحول بعد ساعات إلى ليل بين دخان سيجارتها المتصاعد، تسمع ربما للمرة الألف، الأسطوانة الموجودة على الجرامافون، حيث ينطلق منها صوت آسيان حزين، يبدو وكأنه يأتي من زمن سحيق في القدم، مات كل شهوده.

كان جرس الباب يدق مرتين متتاليتين كل مرة، كان ذلك بمثابة إشارة بينهما، كي تعلم أن القادم هو، على الرغم من إنني لم أر رجلاً آخر

يدخل هذا البيت، في مثل هذه اللحظات كانت تقف أمامي، وتلقي بنظرة أخيرة على وجهها وهندامها قبل أن تفتح الباب.

كان رجلاً قد بدا الشيب يدب في رأسه، كان دائما يحمل شيئا ما لها، باقة ورد أو علبة شيكولاته أو علبة بقلاوة، في كل مرة كانت تضع الزهور في آنية قبل أن تجلس معه، ولم يكن هو يهمل أن يلقي نظرة على وجهه عندما كان يمر من أمامي.

كان يسمع أحيانا نفس الأسطوانة الموجودة في الجرامافون، يتناولان العشاء ويتبادلان الأنخاب، وكانت هذه اللحظات من أجمل لحظات عمرها، حيث كانت تبتسم وتضحك وهي جذلى.

كان الرجل يغادر البيت دائما، وخاصة عندما يتجاوز عقرب الساعة منتصف الليل بقليل، بعد أن ينظر إلى وجهي بعينيه المنتشيتين قبل أن يطويه الليل.

لربما كنت الشاهدة الوحيدة التي أعايش تفاصيل حياة هذه السمراء الفاتنة التي تنساب خصلات شعرها على كتفيها مثل نهر أسود.

في يوم حدث ما لم يكن في الحسبان، حدث شيء، لم أستطع أن أفهم بالضبط كنهه، خابرت صديقتها وهي تذرف الدموع وتجمع حاجياتها:

– لقد انتهى كل شيء!، أقول لكِ انتهى كل شيء يا مقبولة!

وقفتْ أمامي طويلا، وخاطبتني لأول مرة:

- أيتها المرآة، هل هناك في العالم امرأة أتعس مني؟!

كان شعرها مسدلا على كتفيها كنهر اسود، اختفت من أمامي، وكأن ثمة من يطاردها، وتركتني وحيدة على الجدار.

جنيف

28/8/2005

السادسة والنصف مساء



موت قنفذ

كانت (كركوك) قد نهضت للتو من نومها مع أشعة الشمس التي بدأت تمد خيوطها إلى البيوت والأحياء والشوارع رويدًا رويدا، رغم أن الطيور الجاثمة على شجرة التوت التي تتوسط فناء الدار، كانت قد بدأت تغريدها منذ ساعات الفجر المبكرة.

نظرت المرأة النائمة صوب الصفيحة بأمل.

عليها أن تلج إلى هذه التجربة دون تردد لعل القدر يرحمها من علتها، ويبعث العافية التي تفتقدها منذ سنوات، إلى جسدها السقيم.

منذ هذا الصباح الباكر وحيدتها زهرة، مشغولة في المطبخ كعادتها، يا لها من مسكينة! لم تتمتع لا بطفولتها ولا بصباها، تعودت على الاعتناء بها دائمًا، وكأنها أتت إلى هذا العالم لتلبية حاجتها، تجدها إلى جانبها عند آهة، تسرع إليها في كل أنة تصدر منها، نسيت خلالها سنواتها، لم ترها إلا وهي تتصرف كفتاة ناضجة تسبق عمرها.

دمعت عيناها، عندما تذكرت زوجها الصابر على الضيم دون سأم، دون أن تسمع منه يومًا نأمة تدل على الضجر من المرض الخبيث الذي عشعش في جسدها المنهك منذ سنوات، والتي حرمتها أن تمنح له ما تمنحه كل امرأة لزوجها.

مع مرور الزمن بدأ زوجها لا ينظر إليها كأنثى وكزوجة له الحق في جسدها، بل بدأ يتصرف معها وكأنه أخوها الكبير، يثابر بجلد وصبر كي يستعيد جسدها السقيم عافيته.
انهمرت دموعها، حينما تذكرت نظراته الحانية وهو يربت على شعرها، وكأنه يطمئنها بأنه إلى جانبها.

- زهرة، زهرة، تعالي يا حبيبتي واجلسي بقربي.
أقبلت زهرة وهي تمسح يديها المبللتين على مريلتها، وضعت وسادتين خلف ظهر أمها، بعد أن أجلستها على فراشها.
- أمي، لدي حدس قوي بأنك ستشفين هذه المرة.
شاركت بنظرتها وحيدتها هذا التمني بقوة.

ما الذي لم تفعله للتخلص من هذا المرض اللعين والعلة المستحكمة في جسدها الواهن!، ألم تضطر بعد فشل الأطباء للجوء إلى معظم الوصفات الشعبية على أمل أن تستعيد صحتها، وتصبح أمًا لابنتها، وزوجة لزوجها.
تذكرت اليوم الذي اضطرت فيه إلى لحم جرو بناءً على توصية من جارتهم أسماء، المعروفة في الحي بإجادتها للوصفات الشعبية.
كانت قد أقبلت إليها في ذلك اليوم هاشة باشة:

- أبشري فقد قرب الفرج، شفاؤك عندي، من غير مزاح أو شعور بالغثيان، دواؤك هو في تناول لحم الجرو، فقد تذكرت أمس، أن أمي حدثتني عن جدتي التي أصيبت بداء شبيه بدائك في زمن الـ (سفربرلك) أيام القحط الكبير، ولم تشف إلا بتناول لحم جرو، والذي أوصى به بدوي، كان معتادًا على عزف الربابة أيام الأعياد أمام أبواب البيوت مقابل عدة قطع من النقود.

أحست بالغثيان، وكادت أن تتقيأ وهي تجسد في ذهنها النظر المريع والمقزز في نفس الوقت، إلا أن الوهن في ساقيها المصفرتين صفار الموت، ولرغبتها المستميتة في أن تعود أمًا لابنتها وزوجة لزوجها، دفعها في نهاية الأمر إلى القبول هذا الدواء مادام فيه شفاء من الداء اللعين، كانت تفكر بصعوبة الحصول على جرو لهذا الغرض غير الإنساني.

- ومن أين لنا العثور على جرو؟

ضحكت أسماء من سذاجتها وهي تقول:

- الحي مليء بالكلاب السائبة، سأوصي ولدي وصبيان المحلة بالعثور على جرو، وعهد علي أن أقوم أنا بطهيه وقليه وإحضاره لكِ جاهزًا، كما وصفته لي أمي رحمها الله.

تتذكر باشمئزاز ذلك المساء المرعب، أغلقت عينيها حينما وضعت قطعة من اللحم في فمها وبدأت تلوكه دون أن تتمكن من بلعه.

رأت زوجها في تلك اللحظة وهو يذرف الدموع، وينشج بصوت عالٍ، كان واقفًا في زاوية من فناء الدار، كانت تلوك اللحم بصعوبة، في النهاية بلعته، آملة أن تبدأ الحياة في شرايين ساقيها الخاملة الضامرة وتتدفق دماء في وجنتيها الشاحبتين.

أما اليوم فثمة أمل جديد بدأ يهب في أعماقها وأعماق أسرتها الصابرة، كانت تريد الشفاء مهما كان السبب.
نظرت مجددًا صوب الصفيحة، كان الأمل الجديد هناك، أتى به قروي من قرية(تركشكان) القريبة من كركوك.
أملها الجديد هو، قنفذ متكور على نفسه من الرعب في زاوية الصحيفة التي سجنوه في داخلها!
كان وضع القنفذ في الصفيحة بمثابة كرنفال جديد لأطفال الحي الذين ازدحموا في فناء الدار، متدافعين، مكركرين وهم يمدون أصابعهم المترددة الخائفة بين فينة وأخرى في جسد القنفذ المرتعب والمتكور على نفسه من الخوف، وكان الصبية يسحبون أصابعهم الصغيرة بعد شعورهم بوخزة أشواكها.
لم يهمل القروي الذي أحضر لهم القنفذ، أن يشرح لهم كيفية ذبحه:
يلقى القنفذ أولاً في طست مملوء بالماء، وهنا تأتي اللحظة الحاسمة، وهي لحظة اضطرار القنفذ إلى إخراج رأسه كي يتنفس، هنا يجب انتهاز هذه

الفرصة بغرز أبرة فيها خيط في أنف القنفذ وسحب طرفي الخيط، فيضطر القنفذ إلى إخراج رأسه أكثر من ذي قبل بسبب الألم، في هذه اللحظة يجب إمرار سكينة حادة في رقبته القصيرة وإنهاء أمره.

تم تطبيق كل ما أوصى به القروي بدقة، وتحول القنفذ بعد لحظات إلى كرة دامية عائمة في الطست الذي تلون ماؤه بلون الدم.
تأملت الاحتفالية الدامية دون يرف لها جفن، لم تتردد هذه المرة بل فتحت عينها الشاحبتين، وتأملت كل ما حدث دون أدنى إحساس بالشفقة وهي تمتم في نفسها بقوة:
"سأفعل كل شيء من أجل الشفاء، سأتناول لحم الجرو والقنفذ، سأفعل كل شيء، كل شيء".

كانت ثمة عصافير لا تزال تزقزق على أغصان شجرة التوت.
رفعت عينيها المفعمتين بالأمل والرجاء نحو السماء، أحست في تلك اللحظة، أن الله يتأملها من عرشه المكين.

جنيف
26/12/2004
الثانية عشرة ظهراً



رجل عديم الأهمية

كان على مائدة الصباح، يحرك ملعقته بهدوء في كوب الشاي، متابعًا كعادته قراءة الصحيفة الصباحية، اعتاد أن يمر مرور الكرام على الصفحة الأولى وصفحات الأخبار السياسية، التي يعرف بتفاصيلها من أخبار الفضائيات، كانت الصفحة الثقافية هي ما تهمه، وكان أيضًا يهتم بقراءة نصوص الأسماء الشابة أكثر من الأسماء المعروفة، التي كان يعرف منذ السطر الأول؛ بسبب طول متابعته؛ ماذا سيقول صاحبها، وأين سيستعمل الفارزة والنقطة.

ارتشف رشفة من الشاي، فراق له طعمه، عاد يقلب صفحات الصحيفة بملل ظاهر، إلى أن انتبه إلى خبر نعيه المنشور في زاوية ما قبل الصفحة الأخيرة، كان الخبر يشير إلى مقتله أمس على يد مجهول!.
وضع الصحيفة جانباً، ملتفتًا إلى زوجته التي بادرت للحديث، وكأنها تعلم مسبقًا ما سيسأل عنه:
– كنتَ جالسًا صباح أول أمس على نفس مقعدك، جرى كل شيء بسرعة البرق، أجل كنتَ هنا، ترتشف شايك من نفس الكوب، آه لكم كنت رجلاً رائعًا يا حبيبي!

أخذ يعيش لحظات محرجة حار في تفسيرها، الصحيفة وزوجته تتحدث عن موته، بينما هو جالس إلى جانبها، يرتشف الشاي ويقرأ صحيفته، والأغرب من كل ذلك أن زوجته تحدثه بهدوء، وتتقبل بهدوء جلوس رجل ميت إلى جانبها يرتشف الشاي ويقرأ صحيفة!

كانت تبدو وكأنها تقرأ بحر التساؤلات المتلاطم الأمواج في أعماقه، استمرت تسرد له ما جرى،و هو يصغي إليها بهدوء:

– كنتَ سعيدًا في ذلك اليوم، فقد كنت لا تزال تعيش فرحة نشر القصة التي ظللت تطارد تفاصيلها في مخيلتك كما أعلم طويلاً، لم تكن ولادتها على الورقة يسيرة، عندما انتهيت منها أخذت تصرخ كالأطفال: انتهت، انتهت يا ميسون! كنت أظنها لا تنتهي أبدًا، لقد لفظتها أخيرًا من مخيلتي وروحي.

شاركتك الفرحة واحتضنتك بفرح، فلم يكن لي من لحظات أسعد مما أراك فيها بعد انتهائك من كتابة قصة، على عكس المقالات التي تكتبها للصحيفة التي كنت تعمل فيها على مضض.

هرعت بعد ذلك كما هي عادتك، وأحضرت قنينة النبيذ وأعددت كأسين إحداهما لك والأخرى لي، لقد كان ذلك احتفالاً اعتدنا عليه عند انتهائك من كتابة كل قصة.

أنهيت القصة وكتبتها دون أن تفكر إذا ما كانت ستنشر أم لا، فأحيانًا حتى الصحيفة التي كنت تعمل فيها، كانت ترفض نصوصك بحجة خروجها عن المألوف السياسي أو الاجتماعي في مجتمعنا، مجتمعنا المهترئ المليء بالقبح والقيح، كما كنت تسميه دائمًا.

ارتشف رشفة أخرى من الشاي وهو ينظر بصمت إلى زوجته التي ستأتي على ذكر موته. مجت زوجته نفسًا من سيجارتها، ثم واصلت حديثها بنفس الهدوء:

ـ كان أكثر ما يؤلمك، ازدواجيتك ككاتب، كنتَ تجد نفسك في القصة، بينما كنت تكتب بتأفف العمود اليومي في الصحيفة، والذي كنت تكتبه من أجل خبزنا اليومي، كنت تصف كل مقالة بأنها بلا طعم ولا رائحة، وكأنما هي مكتوبة بقلم شخص آخر، بينما كنت تكتب قصصك بحماس وانفعال، كم مرة ارتشفت دموعك التي كانت تنهمر وأنت تقرأ لي بعض قصصك بصوت متهدج من الانفعال!

كنت معتزًا بقصتك الأخيرة التي عجلت بنهايتك، ليتك لم تكتبها!

هنا خنقتها العبرات،وامتلأت عيناها بالدموع:

ـ كان بطل القصة متمردًا، يفكر بصوت عال، خلقته وسيمًا، يسخر من كل شيء حتى من نفسه، يحب أن يوقد النار ولا يطفئها إلا في

اللحظات الأخيرة، عندما توشك أن تأتي على كل شيء. خلقته يحب الأرصفة والمهمشين المسحوقين من البشر، يجالسهم ويسامرهم ويتبادل معهم كؤوس العرق.

وسامته واعتداده بنفسه أهلته لكي يدخل المجتمع الراقي، مجتمع أصحاب الكروش المنتفخة، والنخبة التي تحيط بالنظام كما يحيط المعصم بالساعد.

لقد جعلته يؤمن أنه بالولوج إلى هذا العالم الذي تتحكم فيه الأنانية والمصلحة الشخصية والانتهازية، يمارس نوعًا من الانتقام منه في نفس الوقت، كان يعده نوعًا من الانتقام، أن يدخل حافٍ مثله عالم الأثرياء والنخبة والرفاق، أن يجلس معهم على موائدهم، يأكل من طعامهم ويتباسط معهم في الكلام والشراب، ثم يأتي بعد ذلك إلى أصدقائه في الأرصفة والحانات الرخيصة أصدقاء وعالمه السري، ليتقيأ كل ما دخل معدته ثم تبدأ منادمته معهم حتى الصباح مع كؤوس العرق الرخيص.

أجل لقد جعلت بطلك وسيمًا، وجعلت الخير والشر يجري في أعماقه، لكنه لم يكن يجد شرًا في أن يولج إلى عالم غير عالمه ولم يكن يرى نقيصة في أن يكذب عليهم ويتملقهم ويمارس الانتهازية معهم، كان يرى ذلك مشروعًا من اجل أن يصبح نجم الحفلات السرية التي كان يقيمها الرفاق والطبقة الطفيلية.

هناك اكتشف كم من سافل وجبان يتحكم في مصائرنا وحياتنا، اكتشف بألم وحرقة، أن مصيره ومصائر الآخرين مرتبطة بكلمة تنطلق من شفتي هذا الداعر أو أولئك المكرشين من أصحاب النياشين والأوسمة، الذين انقلبوا ما بين ليلة وضحاها من عمال أميين ومنبوذين ونكرات إلى مسؤولين، لا لشيء إلا لتمكنهم من ممارسة القمع والقتل بدم بارد.

لكنه اكتشف أيضًا كيف ينهار هؤلاء المنفوخين بنياشينهم أمام سيقان النساء وصدروهن العامرة، فيلثمون تلك السيقان حتى لو كانت صاحباتها من بنات الهوى أو غجرية بلهاء.

ازدادت كمية العرق التي كان يتقيأها كل ليلة قبل أن يجلس مع أصدقائه في الحانات الرخيصة أو الأرصفة النائية عن العيون وحركة السيارات.

في ليلة ألقوا القبض على بطلك وقادوه إلى قبو شبه مظلم، قالوا إنهم يعرفون عنه كل شيء، يعرفون أنه يكره النظام ورموزه.

قابل الأمر بسخرية:

- وهل أنا أول من يكره النظام؟

وصف أصدقاءه في العالم السفلي من المهمشين والمنسيين، بأنهم هويته الحقيقية،وأنه ينقي معهم معدته وروحه من الأدران.

نظر إلى بطلك أكبر الحاضرين رتبة، نظرة فاحصة، عميقة ثم طلب من الجميع الخروج من القبو.

قال لبطلك:

- نحن نعرف عنك كل شيء وخاصة علاقاتك النسائية مع زوجات بعض الرجال المهمين، التي هي ليس خافية علينا، كيف استطعت إغوائهن يا كلب!

أراد بطلك أن يلقي عليه خطابًا، فلم يتردد، قال بهدوء:

- المرأة تملك جسدًا وأحاسيس ومشاعر مثل مشاعركم، إن لم تكن أرقى وأعمق، من مشاعركم الشهوانية التي تطفئونها مع الساقطات.

ثم أضاف:

- لقد أسمعت تلك النساء كل ما يودن سماعه من كلمات الحب، كل ما يتشوقن إلى سماعه من أزواجهن الغارقين في المتع الرخيصة.

صوّرتَ الضابط في القصة وكأن مسًا من الجنون أصابه في هذه اللحظة، حيث أخذ يصرخ بأعلى صوته طالبًا من فريقه الذي أخرجهم من القبو بالعودة.

- تعالوا وأدبوا هذا الخنزير!

انهالوا عليهم بالضرب واللكمات، إلا أنه طلب منهم التوقف، كان يريد أن يهينه، فالإهانة أحيانا كما كان يعتقد أكثر مقتلاً من التعذيب،

صرخ بهم:

- اخلعوا ملابسه!

خلعوا ملابسه قطعة قطعة، لم يبق ما يستره إلا لباسه الداخلي.

صرخ بهم ثانية:

- جردوه منه أيضًا!

انتزعوا منه القطعة الأخيرة، استعد الضابط ليضحك ويملأ مع فريقه القبو بالضحكات، لكن بطلك أجاب بهدوء:

- بدلاً من ضحكاتكم الداعرة، أسالوا أنفسكم لماذا أنتم فاشلون مع زوجاتكم، كفشلكم الذريع في إدارة الدولة؟

كان يعلم بالتفاصيل لذلك لم يقاطع زوجته بل تابعها بصمت واهتمام وكأنما تروي له قصة كتبها غيره.

تناول رشفة أخرى من فنجان القهوة، أخذت زوجته نفسًا من سيجارتها وواصلت الحديث:

- طبعًا لم تنشر القصة في الصحيفة التي كنت تعمل فيها، بل نشرتها في إحدى المجلات البيروتية. قرب الفجر حضر زوار الفجر أمس، وأخذوك معهم بكل فظاظة، ذهبت ولم تعد.

اعتبروا قصتك مستمسكًا ضدك، ودليلاً على معاداتك للنظام، لا أدري ماذا قلت في التحقيق، لكن الذي أنا واثقة منه، هو أنك لم تتحمل التعذيب، نزفت كثيرًا حتى الموت.

أحضروك جثة هامدة قرب الفجر أيضًا، وكأنهم يخشون إحضارك في ضوء النهار.

قالوا لي: لا عزاء!، هيا رافقينا إلى المقبرة لدفنه دون مشاكل.

كنت على نفس المائدة يوم أول أمس، تخطط لكتابة قصة جديدة، كنت مهووسًا بالقصة.

لم يعلق على كلام زوجته، ترك المائدة وبخطوات وئيدة وبطيئة، دخل غرفة نومه وامتد على سريره ثم غط في نوم عميق.

جنيف

3/12/2005

الساعة 5,45 صباحا



سعاد

نهض الكلب الراقد منذ الصباح على الرصيف، وكأنه يفسح الطريق أمام سعاد، التي رقدت كفها الصغيرة في كف أبيها، تأملته بحنو طفولي.

لم تكن السيارات المنطلقة مهتمة بالسابلة الذين يريدون عبور الشارع ولا بسعاد أو أبيها.

كان المارة يتحركون في كل الاتجاهات، أما هي فقد كانت في طريقها إلى دنياها التي ترتبط بها بحبلٍ سحري، كانت تشعر براحة كبيرة، فها هي متجهة الخطى إلى قريتها (ينكجه)، التي كانت محفورة في ذاكرتها الصغيرة بتلالها المتلفعة بالأشجار الباسقة والبسط الأخضر الذي يمتد عليها مع إطلالة الربيع.

تبللت كفها الصغيرة بالعرق في كف أبيها، وهي تتقدم بهدوء معه نحو ضفاف عالمها المجهول.

لم يكن أحد يعلم حجم الوحدة والحرمان الذي يعاني منه الرجل، أكثر من حصانه (بياز) الذي كان ينظر إليه بعينيه الواسعتين وكأنه يفهم لواعج نفسه، وكذلك الوسادة التي يضع عليها رأسه المتعب كل مساء.

كان قد ألف الوحدة وألفته بدورها، اعتبرها بمثابة قدره بعد وفاة زوجته الغالية، لم يكن يسليه في وحدته الممتدة من الصباح حتى المساء سوى إحساسه بوجود سعاد.

بعد وفاة أمها، أخذها إلى خالتها التي تسكن في محلة (بولاق) بكركوك. كان يطل عليها بين فترة وأخرى، لكن زيارته هذه المرة كانت مختلفة تمامًا عن سابقاتها، وقد انتبهت خالتها إلى ذلك حينما طرق الباب هذا الصباح قائلاً لها:

- أريد أن أخذ سعاد لتبقى عندي في (ينكجه) عدة أيام.

أحست المرأة أن ثمة أمر غير عادي في أعماق الرجل، لم يفصح عنه، لكنها فضلت التزام الصمت، وفضلت أن تقنع نفسها بأنه والدها ومن حقه أن يشتاق إلى وحيدته.

أعدت صرة ملابسها ثم قبلتها من جبينها بحنو وتابعتها وهي تختفي مع والدها من الزقاق.

في غفلة من سعاد، كان ثمة صراع يدور في أعماق الرجل الذي كان يقوده إلى عزلته ووحدته وعالمه الموحش.

أصبح له فترة وهو يعيش بريقًا ساطعًا في عالمه، منذ فترة وثمة أحلام لزجة بدأت تطارده ليل نهار منذ أن وقع عينيه على بدرية الأرملة. كانت قد تسللت بخلسة وقوة وبكل عريها المثير إلى صحراء حياته،

كانت تشطر نومه دون إنصاف في أنصاف الليالي، يجلس على أثره أرقًا حتى الصباح على فراشه وهو يلعن الشيطان.
لكن بدرية ما انفكت تتسلل إلى أحلامه ويقظته بإصرار، محتلة بذلك كل مساحات تفكيره وعواطفه بحيث بدأ يعجز أحيانًا عن الذهاب إلى الحقل كل صباح كعادته.
كانت بدرية بحكم خبرتها كأرملة متمرسة على علم بالنار التي أضرمتها بمهارة في يقظة الرجل ومنامه، وفي ليله ونهاره، إلى أن أيقنت أن الطريدة قد وقعت في الكمين.
وجد عند قابلة القرية الحل الذي سينهي معاناته، ويبعد شيطان الشهوة والغواية عن حياته، قالت له:
- تزوجا يا بني على سنة الله ورسوله.
لكنها لم تهمل أن تتوقف وتنظر إليه بمكر وخبث وهي تضيف:
- ولكن كيف سيوافق أخوها عبدي الأمرد على هذا الأمر؟ فهو كما تعلم رجل صعب المراس وعنيد كالبغل!

تسابقت الأيام وتساقطت أوراقها من التقاويم ووجدت القابلة الحل:
- سينتهي هذا الأمر على خير لو زوجت سعاد من عبدي الأمرد.
أحس بإرادته مغلولة وبلسانه مشلولاً.

كانت بدرية تقتحم بكامل عريها أحلامه، وتحرمه هدوء النفس وراحة البال. بدأ سحرها يحاصره من كل جانب ولم ير في النهاية إلا أن يرفع راية الاستسلام قائلاً: "سأذهب غدًا وأحضرها من بيت خالتها في كركوك".

نظر بطرف عينيه إليها، من يدري متى سترى هذه الأزقة والشوارع والمارة مرة أخرى؟

كانت ثمة تساؤلات تحتل مكانها في ذهنها الصغير، وهي تحاول اللحاق بأبيها، ترى كم طالت الأشجار في (ميل تبه)، وكم من سمك استضافته ساقية القرية منذ زيارتها الأخيرة للقرية وحتى الآن؟

نظر الرجل بطرف عينيه إلى الطرف الذي تقع فيه المجزرة (قصابخانه)، التي ينحر فيها يوميا عشرات الخراف، وقعت عيناه دون إرادة منه على قطيع من الخراف وهي في طريقها إلى الموت.

التفت إليها، كان يعي أنه انتزع وحيدته انتزاعًا من مدرستها وطفولتها، شعر بنار تستعر وتشعل أعماقه، لكنه كان يتقدم بها إلى مصيرها المجهول، وكأنه مسحور لا قدرة له على التفكير.

كانت رائحة الشواء المتصاعدة من عربة بائع الكباب أكثر من أن تتحملها سعاد، التي همست بصوت خجول:

- بابا، أريد كبابا.

نطقتها ببراءة، أحس بها وكأنها مطلبها الأخير قبل أن تخطو خطواتها في العالم الجديد الذي يسوقها إليه سوقًا.

كان الرجل في داخل نفسه يعمل جاهدا أن يتحرر من أحلامه اللزجة، التي تطل منها دائمًا بدرية بعريها الكامل والمثير، كان السبيل الوحيد إلى ذلك أن يحتويها بين ذراعيه، وأن يغطيهما لحاف واحد، أما سعاد! كان يريد التهرب من الواقع الذي يسوق إليه وحيدته الآن، لم يكن يريد حتى أن يتصورها مجرد تصور مع عبدي الأمرد.

سعاد حمل وديع وعبدي ذئب مفترس.

عبدي نار، وسعاد ماء رقراق.

عبدي ثعلب ماكر، وسعاد دجاجة بريئة.

كانت تلتهم الكباب الملفوف برغيف بنهم، كانت تبدو سعيدة وهي في طريقها إلى القرية.

- بابا، أريد البقاء طويلاً في القرية، لقد اشتقت إليها.

- حسنًا.

قالها بصوت خفيض لم يسمعه غيره، ثم أضاف:

- هل تريدين المزيد من الكباب؟

سألها كما يسئل محكوم بالإعدام عن آخر أمانيه، كانت تبدو إلى جانبه مثل سحابة بريئة، تسير بهدوء دون أن تعي شيئًا.

لم تنته أمنياتها الصغيرة:

- بابا، لنذهب إلى الجراج بعربة حصان.

وجدت نفسها بعد لحظة داخل عربة مع أبيها، تصغي إلى صوت حوافر الحصان، مع كل خطوة من خطوات الحصان، كانت تقترب من عالمها الجديد

تاك، توك، تاك، توك...

الأشجار والمارة والسيارت تمر بسرعة من أمام ناظريها.

لم يكن أحد يعلم ماذا سيواجه سعاد، لا الطيور ولا الحصان الذي كان يصهل بين حين وآخر، ولا باعة (الشربت)، أو الباعة الواقفين أمام دور السينما، أو الرواد الذين يغادرونها أو الذين يستعدون للدخول إليها.

لم يكشف الرجل عن سره لا للتلال المتراصة، ولا لأشجار السرو التي كانت تلقي بظلالها بدلال عليها. لكن سعاد سترى الحقيقة المرعبة حتما في يوم، بعينيين تملؤهما الدهشة والرعب.

جنيف

27/3/2006

السابعة والربع مساءً



البحث عن ظل في الظلام

تنفس الصعداء عندما انتهى من محاضرته التي أحس بها قبل الطلبة الجالسين أمامه شبه يقظى، إنها مملة.

انطلق بخطوات سريعة نحو غرفته بلهفة، وكأنه ينطلق إلى عالم بعيد، مسدود الأبواب والفضاءات على العالم الذي يعيش فيه.

جلس متنفسًا الصعداء، هذه الغرفة، هي عالمه هنا، لا بأس، لا يزال أمامه ساعة واحدة على المحاضرة الثانية.

أحضرت له (باجي رابعة) قدحًا من الشاي الأسود الذي يعدل الدماغ كما يقال، سحب درج مكتبه، ليعود إلى قراءة مذكرات رفائيل آلبرتي (الغابة الضائعة)، قرأ مرة أخرى كلمات الإهداء الراقدة فوق الصفحة الأولى من الكتاب:

"إلى نصرت. رفائيل آلبرتي معك. وكذلك البحر والطفولة وشذى كركوك"

حمزة حمامجي أوغلو

تذكر ملامح صديقه الطيب، صياد الكتب النادرة والقيمة، صديقه الذي يفضل الكتاب على الرغيف، كان قد بدأ بقراءة الكتاب منذ ليلة أمس، مسافرًا بعيدًا، إلى غرناطة وطليطلة ومدريد وبحر مالاقا.

فجأة فتح الباب وأطل منه العميد بوجهه الخبيث، الذي يذّكره دائمًا بوجه الثعلب الذي يحاول أن يصطاد ضحيته بمكر، كان قد اعتاد المرور على غرف الأساتذة على مدار الساعة ليتأكد من حضورهم، وكأنه مدير مدرسة ابتدائية وليس عميد كلية.

- أظن عندك ساعة فراغ أستاذ، أليس كذلك؟

اقترب منه عدة خطوات، كان يريد أن يعرف اسم الكتاب الذي يقرأه، إلا أنه توقف مكتفيًا بسؤاله:

- أظن أنك تتهيأ للمحاضرة القادمة؟

- طبعا دكتور، لقد أردت استغلال الفراغ.

- جيد، جيد أستاذ.

عاد أدراجه لتكملة جولته إلى غرف بقية التدريسيين، إنه على يقين أن العميد شعر بالخيبة لعدم معرفته عنوان الكتاب الذي كان يقرأه.

كان يحس بالوحدة وسط أميين، يمتلكون شهادة مصدقة بأنهم مثقفون، ألم يقل بالأمس القريب أحدهم له بعد أن رآه يحمل رواية (الحانة) لإميل زولا:

- إميل زولا! عرفته إنه كاتب لبناني، أليس كذلك؟

اكتفى بإيماءة من رأسه مع واحدة من ابتساماته النادرة.

ارتشف من الشاي وعاد إلى الكتاب ثانية، كان قد حكم على نفسه بالعزلة، يجلس في غرفته مختليًا بنفسه، على العكس من زملائه الذين كانوا يتزاورون فيما بينهم في ساعات فراغهم، غارقين في أحاديث تافهة تدور حول الانتصارات المتلاحقة التي لا تنتهي ضد العدو الإيراني، أو دعوة مواليد العام الفلاني للخدمة في الجيش أو للتدريب في الجيش الشعبي.

كان يحس بأنه يعيش في عالم غير عالمه، يلقي محاضرات على عشرات الطلبة يوميًا بآلية، حريصا في الوقت نفسه أن لا تصدر منه أية هفوة تجعله فريسة لوليمة الذئاب، لعلمه بوجود عيون للعميد في كل قاعة دراسية، تنقل له ما يتحدث به كل أستاذ وطريقة تعامله مع الطلبة وانطباعاتهم عنه.

فجأة فُتح الباب، كان يتشاءم كثيرًا من ذلك لأنه كان موقنًا في قرارة نفسه دائمًا، بأنه لا يمكن لأحد أن يحمل إلى روحه الجريحة بشرى أو مفاجأة سعيدة، وكان على يقين أن زمن المسرات قد ولى بالنسبة إليه!

دخل الأستاذ حسين برفقة شخص آخر، نحيف، نصف أصلع، قصير القامة، بدأ ينظر إليه مبتسمًا منذ لحظة دخوله للغرفة، التفت إليه الأستاذ حسين قائلاً:

- عيني، هذا هو الأخ نصرت.

ثم غادر الغرفة وكأنه جندي أنهى المهمة الموكولة إليه.

أما الزائر الغريب فقد سحب كرسيًا بالقرب منه مبتسمًا لمدة بخبث، ثم ما لبث أن قال له:

– اسمي منذر، طبعا أنت لا تعرفني، لكنني أعرفك حق المعرفة.

أحس بصفير رياح الشك في أعماقه المستفَزة أصلاً، إنه لا يتذكر هذا الزائر الغريب الذي يدعي أنه يعرف عنه كل شيء، بل لا يعرفه على الإطلاق.

خلال فترة الصمت التي لم تدم إلا ثوان قليلة، دخل في صراع مع نفسه، ترى هل قابله في أحد النوادي عندما كان مخمورًا، وهو الآن لا يتذكره؟ ولو صحت هذه الفرضية، هل قد يكون قد أفضى إليه بجملة مفيدة أو غير مفيدة تضعه في دائرة الشبهات؟

لكنه تمالك نفسه وبدا رابط الجأش وهو يقول له:

– لا أظن يا أخ منذر إننا التقينا في أي مكان، فهذه هي المرة الأولى التي أراك فيها!

ضحك منذر بخبث، ثم أشعل سيجارته قائلاً:

– لكنني أعرفك حقا يا ابن كركوك، قرأت كل قصصك المنشورة وغير المنشورة، قرأت جميع رسائلك، ومنذ أن كنتَ طالبًا في تركيا.

لم يكتف بذلك بل قال جملته الإضافية التي كانت كافية لإزالة المساحة القليلة المتبقية من تفاؤله أو هدوءه المصطنع:

– أخ نصرت إضبارتك عندي.

من هذا المخلوق الذي قلب نهاره رأسًا على عقب في غمضة عين؟ من أين دخل إلى عالمه؟ رغم ذلك حدق في وجهه، كان مصممًا أن يسأله السؤال الذي ظل يحلق في سماء سوداء بأعماقه:

– أخ منذر، عفوًا، هل بإمكاني أن أعرف عملك حتى تكون إضبارتي عندك؟

ضحك عباس بقوة بينما كانت دخان السيجارة تخرج من فمه كقطع متناثرة من السحاب.

ـ لقد تعينت اليوم في الكلية، ألم يقل الأستاذ حسين ذلك عندما قدمني إليك؟ يا له من حمار!

استغرب أن يصدر منه هذه الشتيمة، ولم يمض على مباشرته بالكلية إلا ساعات، تجاه الأستاذ حسين الذي يعمل المستحيل من أجل الوصول إلى درجة (رفيق حزبي) دون جدوى، مصطدمًا في كل مرة بحاجز كون جده السادس عشر من أصل أفغاني.

كان لا يزال يتحدث وهو ينظر إليه مبتسمًا:

– أستاذي العزيز، قبل حصولي على شهادة الماجستير، كنت أعمل موظفًا في الرقابة العامة على المطبوعات، أقرأ جميع الكتب والمجلات التي تدخل القطر.

ثم انتابته حماسة مفاجئة:

- (وداعت هالشوارب) لم يدخل العراق مجلة أو مطبوعة دون تقرير مني، وكلام في سرك، الكتب التي اكتب تقريرًا بمنعها، كنت أحمل نسخًا منها إلى مكتبتي، كما كنت مكلفًا بفتح الرسائل المرسلة إلى القطر من تركيا وبالعكس، وهكذا مرت علي جميع رسائلك التي كنت تكتبها إلى أهلك وأصدقائك، أو إلى بعض المجلات.

اعتدل في جلسته ثم داس بحذائه على عقب سيجارته التي انتهى من تدخينها، على الرغم من وجود منفضة للسجائر على مكتبه.

ثم واصل حديثه:

- كنت تذكر لأصدقائك بأنك لم تكتب شيئًا ذا بال، رغم أن أعماقك تفيض بقصص وقصائد، هذه الجملة دفعتني للتعاطف معك وتلهفي على قراءة جميع رسائلك، وجدتُ فيها نوعًا من التواضع الذي بات عملة نادرة في أيامنا. أود أن أذكرك بعبارة كتبتها لحبيبتك، قرأتها قبل أن تصلها رسالتك إليها، قلتَ في إحدى هذه الرسائل: "بحر إيجه، يقف أمامي يتيمًا بأسمال بالية لأنك لا تنتظريني على ضفافه".

لكن كان يحدث ورود جمل في رسائلك لو وقعت عليها عينا شخص غيري، كان حريًا أن تخلق لك المتاعب، لكنك كنت محظوظًا معي رغم إنني لم أتوان بدوري من القيام بواجبي، فكم من طالب عاد إلى كركوك ولم يعد إلى مكان دراسته لقراءتي أمورًا تبعث على الشك في سطور رسائله، لا أدري كم شخص غاب في غياهب السجون لإعطائه صورة

سيئة في رسائلهم عن قطرنا إلى أبنائهم أو أصدقائهم في زمن الحصار الغادر، لكتابتهم عن الغلاء وارتفاع الأسعار، واختفاء الفواكه والخضراوات من الأسواق، وانتشار السوق السوداء.

جثمت غيمة حالكة السواد على وجهه، وأبت أن تغادره وهو يستمع فاغر الفاه إلى ضيفه الغريب.

– من أجل هذا يا عزيزي، قلت لك إن إضبارتك عندي، وتفاصيل مغامراتك التي كنت تكتب عنها لأصدقائك أحفظها عن ظهر قلب، لا أخفي عليك إنني خلال عملي كرقيب على المطبوعات والرسائل كنتُ معجبًا بك، لذلك طلبت من الأستاذ حسين أن يعرفني بك، حينما علمت بأننا نعمل في نفس الكلية.

لم يجد إلا أن يردد له العبارة التقليدية التي تقال في مثل هذه المناسبات:

– أهلاً وسهلاً!

نهض أخيرًا وهمّ بالمغادرة لكنه التفت إليه، كان لا يزال يملك ما يقوله

– بصراحة يا أستاذ، خيبت ظني، وجدتك قليل الكلام وكنت أظنك لبقًا وخطيبًا مفوهًا، أعذرني لقد وجدتك انطوائيًا أكثر مما كنت أتوقع. على فكرة لقد قرأت حتى قصيدة الرثاء التي كتبتها عن الخائن بشار، الذي نفذ به حكم الإعدام أثناء محاولته الفرار من واجبه العسكري

المقدس إلى تركيا، عرفت أنك تقصده برثائك رغم عدم إفصاحك عن اسمه.

تجمدت أحاسيسه وحط غراب أسود على أغصان روحه، وبدا وكأنه مجرد تمثال لا حياة فيه.

أخيرًا غادر غرفته، أسرع بإغلاق الباب بعد خروجه، كان يجب أن يبقي على الباب مغلقًا، أحس بحاجة عنيفة إلى الصراخ بأعلى صوته، وجد صعوبة بالغة بل شللاً حقيقيًا في ذهنه في اعتبار ما رآه وسمعه اليوم مجرد صدفة. أي صدفة في أن يقصده رقيب سابق بصفة مدرس ليحدثه عن حياته ويعرج إلى منعطفات فيها، بات هو لا يتذكرها، وإن تكون عبارة من رسائله مخزونة في صدره؟

لم يدر ما الذي سينتظره على يد هذا الضيف الثقيل، الذي سيثقل حتمًا كاهله المثقل بالهموم والكآبات وجبال من الخوف والرعب.

بقرار مفاجئ وضع (الغابة الضائعة) في حقيبته ثم انطلق بخطوات مسرعة خارجًا من غرفته، شاهده عدد من طلبته الذين كانوا ينتظرون محاضرته قائلين:

- أستاذ لدينا محاضرة.

غمغم قائلاً:

- لدي عمل هام وعاجل علي إنجازه، سنعوضها بمحاضرة إضافية فيما بعد.

صرخ أحد الطلبة مبشرًا زملاءه:

- يا جماعة، ماكو محاضرة!

* * *

"إن كنت تتصور أنك سترعبني، وتجعلني أسيرًا للخوف والرعب فأنت واهم ومخطئ، أريدك أن تعلم بأنني لست مهتمًا بك على الإطلاق، إضبارتي عندك؟ طز ومليون طز (بللها واشرب ماءها)، إن كنت تظن أنك بأسلوبك الخسيس ستجعلني دمية بين يديك، فأنت واهم، أمثالك من الخفافيش اعتادوا على العيش في الظلام، لستُ خطيبًا مفوهًا، افتخر بذلك فلا قدرة لي أن أقول للجبان: يا عنتر، ولا للبخيل: يا حاتم الطائي، ولا للفاسق: يا محي الدين العربي

فجأة صمت عندما سمع صوت زوجته الساخط خلفه:

- هل تتحدث إلى المرآة في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟!

جنيف

25/6/2006

الساعة 8,10 صباحا



شارع في كركوك

كانت الشمس على وشك أن تغادر شارع الجمهورية، استعدادًا لاستقبال مساء جديد، كانت السيارات تواصل طريقها بصخب مزعج، ثمة أناس مسرعين يمنة ويسرة، وكأنهم يحاولون اللحاق بموعد مجهول.
كانت المحلات التي بدأت بإشعال مصابيحها تضفي على الشارع لونًا يكمل الصورة التي يجب أن يكون عليها الشارع. كان طرفا الشارع يحتضن محلات كثيرة لا يجمعها رابط، لذلك ترتبط هذه الصورة بأصوات الأغاني المنطلقة من محلات بيع المرطبات، والروائح المختلفة التي ترتفع نحو السماء من المطاعم كطير يتعلم الطيران رويدا رويدا.
زبائن يلتهمون السندويج والكباب والفلافل والكص بنهم وسرعة أمام المحلات التي تتقدم الوجبات السريعة أو في المطاعم، وكأنهم يتناولون العشاء الأخير في حياتهم.
رائحة المشروبات الروحية تشرئب بعنقها من البارات المغلفة بزجاج مظلم، ورائحة العطور المنبعثة من محلات الكماليات التي تبيع العطور وأدوات التجميل النسائية، بينما رائحة الأدوية المختلفة النابعة من الصيدليات تذكر المارة بالمرض، ولربما بالشيخوخة، أو حتى بالموت.

كان شيئًا عاديًا أن تلتفت أعناق المراهقين نحو الفتيات التي يتهادين إلى جانب أمهاتهن المتلفعات بالعباءات السود، وكأنهن في حضرة شرطي

قاسي القلب، يحسب للنظرة والآهة واللوعة ألف حساب، لا يقتصر هذا المنظر على مجرد نظرة شهوانية من العيون النهمة المتطلعة إلى الأجساد النسائية الشهية التي تتهادى أمامها، وتمشي في حال سبيلها على رصيفي الشارع، بل كانت النظرات تترافق مع كلمة إعجاب، أو ترديد مقطع من أغنية، أو آهة حرى يطلقها بصوت عال مراهق يسكن الجنس كل خلاياه، لم يتمتع بعد بمتعة ملامسة جسد نسائي، لكنه رغم ذلك يحاول أن يغطي على هذا الجانب القلق في حياته بجعل آهاته وجمله مبالغ فيها ليُسمِعها إلى اللاتي يمرن من الرصيف بهدوء مشوب بقلق، بينما نظراتهن تفضح انتشائهن بكلمات الإعجاب المتطايرة يمنة ويسرة، والتي يطلقها معجبون مجهولون أمام المطاعم أو سينما (صلاح الدين)، أو من رواد المقاهي المرصوفة مقاعدها على الرصيف، وهم يرتشفون الشاي ويتطلعون إلى النساء بنهم غير مبالين بالأغنية المنطلقة من قلب المقهى.

من محلات التسجيلات التي تستعد لإغلاق أبوابها، تنطلق الأغاني الأخيرة وكأنها تودع الشارع، لتلتقي معه في صباح اليوم التالي، بينما ينظر فريد الأطرش وعبد الحليم وأحمد عدوية وحسين نعمة ومي ووحيد وهابا بوجوه مبتسمة إلى المارة المنطلقين إلى موعدهم مع المساء بعيون ثابتة وملامح لا تتغير، وكأنها تتمنى لهم مساءً جميلا.

على نفس الشارع قد يخطو مجرم يحمل تفاصيل جريمته التي سيرتكبها بعد ساعات، قد يطلق فيها الرصاص على الرجل الذي استطاع أن ينتزع زوجته من أحضانه، أو يطعن بالسكين جسد شقيقته طعنًا بالسكين الذي يخفيه تحت معطفه لمجرد أن ألسنة الجيران بدأت تلوك سمعتها، في الوقت الذي يسير إلى جانبه شيخ يسعل وهو يستحث خطواته مسرعًا بدوره للوصول إلى جامع (الملا حسام الدين)، ليتحرر قبل لحظة من ضوضاء الشارع وصخبه إلى هدوء وسكينة الجامع بين مصلين يتمتمون بالأدعية، متضرعين إلى الله بخشوع، أن يسكت صوت الجريمة في مدينتهم.

المارة يبدون غير مبالين بالفتاة التي تمشي باستنكار، يعشعش القلق في كل تفاصيل وجهها الجميل، دون أن يعرف أحد منهم بأنها على موعد مع الموت، بعد أن بات هذا الحبيب المجهول أملها الوحيد، بعد أن كانت تخشى من مجرد ذكر اسمه، بل أن قلبها لم يطاوعها أن تلقي بنظرة الوداع على وجه أمها وهي متلفعة بالكفن في انتظار رحلتها الأخيرة، لم يبق ثمة أمل، الأفضل أن تنهي حياتها بنفسها بدلاً من أن تنزل السكاكين طعناً على جسدها من قبل إخوتها عندما يكتشفون حملها، كانت تبدو مصرة على إنهاء حياتها بنفسها، سترحل مع جنينها الذي لن يرى النور، سترحل مع جنينها قبل أن ترى عيناه شمس المدينة.

في محله كان نهاد ينظر إلى الساعة الجدارية بين لحظة وأخرى، فلا شيء سيثنيه عن استعادة ما خسره ليلة أمس على مائدة القمار.

لم تكن (ده للي صبيحة) المجنونة، قد أنهت بعد جولتها اليومية التي تبدأ من الصباح الباكر ولا تنتهي إلا عند المساء، كانت تتطلع إلى وجوه رواد المقهى الذين ما أن رأوها حتى بدأوا بمشاكستها كعادتهم:

– صبيحة! هل تتزوجيني؟

ردت عليهم بعباراتها التي يحفظونها عن ظهر قلب:

– قواد، روح اتزوج أمك!

ورغم ذلك يضحكون وكأنهم يسمعونها لأول مرة، مدت (ده للي صبيحة) يدها إلى أولهم تطلب صدقة على طريقتها:

– ياللا يا قواد، اعطني دينار!

لا يكل أحد الجالسين من تكرار قصة زواجها التي يعرفها الجميع، وكيف قاومت العريس وهو يستعد لخلع ملابسه استعدادا للوصول إلى فاكهة صبيحة:

– ماذا تفعل يا قواد؟ هل تريد أن تنكحني؟ أدبسز، روح أنكح أمك.

ويضحك الجميع بصوت واحد بين قرقرة النرجيلة وفرقعة أحجار الدومينو، وكأنهم يسمعون الحكاية لأول مرة.

بقامته الطويلة وبدلته الأنيقة دائما كان (خاجيك) يقف أمام استديو (صونا) بوقار متأملاً المارة، وكأنه ملك يستعرض رعاياه، وهو يستعد لكتابة قصيدة فاشلة، تضاف إلى قصائده التي لا تثير إلا سخرية زملائه لكنه رغم ذلك لم يكن يأبه لذلك البتة، لأن قصائده أثيرة عنده، ويكفي أنها تستوعب أحلامه.

ثمة زبون في مطعم (كباب نوزاد) يبدو قلقًا وهو يحاول أن يسدد ثمن ما التهمه من الكباب والطرشي واللبن بالدنانير المزورة التي اشتراها من صديق له بدأ بتزوير الأوراق النقدية، بعد نجاحه الباهر في تزوير جميع الوثائق والشهادات الرسمية.

كان السكر يبدو واضحًا على (خليل)، وهو في طريقة إلى نادي المعلمين، بعد أن تناول عدة قناني من البيرة في بار عمر الخيام، كعادته كل مساء، معتبرًا أن البيرة إنما تنظف المعدة وتهيئها لقضاء بقية الليل على مائدة الخمر مع أصدقائه الذين يسبقونه دائمًا إلى النادي.

عندما مر الحاج رؤوف، الذي اعتاد أن يتمتم بالأدعية ويتظاهر بالتقوى، دون أن يستطيع أن يمنع عينيه من التطلع خلسة إلى أرداف الفتيات اللاتي يرتدين الجينز، محاولاً بذلك إشباع الشيطان القابع في أعماقه.

من أمام صيدلية صلاح، كان الأصدقاء الأربعة، يستمعون في بار عمر الخيام، إلى أم كلثوم للمرة المليون:

يا فؤادي لا تسل أين الهوى ؟

كان صرحا من خيال فهوى

كانت المائدة عامرة أمامهم بقناني (شهرزاد)، وكان السكر قد خيم سلطانه عليهم، كان كل منهم منشغلاً بالحديث مع زميله الذي يجلس إلى جانبه، في موضوع لا صلة له بتاتًا بما يتحدث فيه زميلاهما، وبسبب صوت أم كلثوم الطاغي كانا يسمعان بعضهما بالكاد.

تناول سمير ملعقة من اللبلبي وهو يقول بسخط، إن منال لا يمكن أن تحب تيسا أجرب مثل كمال، وإنها سترجع له نادمة، لكنه سوف لن يصفح عنها، بل سيتزوج من ابنة خالتها المغرمة به نكاية بها.

أما عيون يشار وحمزة فكانت مسمرة على صورة مارلين مونرو المغرية، وهي تحاول بضحكة كلها غنج ودلال أن تمسك بطرف فستانها الذي رفعته الريح، لتظهر ساقيها البيضاوين كالحليب. لم يتوقف حمزة من الإطراء على جمالها الأنثوي الأخاذ وشعرها الأشقر كسنابل حقل لم يحصد بعد، وصدرها الناهد باستداراته الشهية.

عندما خرجوا من البار، لم يكن أي منهم يمشي بخطوات ثابتة، كانوا يترنحون وهم يغمغمون بكلمات غير مفهومة وكأنهم يخاطبون أشخاصًا سريين لا يراهم أحد غيرهم.

توقف حمزة فجأة، بعد أن بدأت أضواء الشارع تتأرجح يمنة ويسرة، وكأن الشارع جالس داخل أرجوحة، تقيأ بقوة أمام محل كماليات عبد القادر، قال له صوت سكران:

- عيب والله عيب، إنه محل صديقنا!

رفع حمزة رأسه، ونظر إليه بعينين محمرتين دامعتين من شدة القيء:

- للذكرى، للذكرى، سيعلم في الصباح بأنني مررت من هنا.

في نهاية الشارع تفرقوا، سعى كل منهم في اتجاه حاملين معهم ظلالهم التي كانت تتأرجح يمنة ويسرة.

دفع حمزة الباب الخشبي الذي أحدث صريرًا مزعجًا في هدأة الليل، كانت أمه تحرص على أن تترك له الباب مفتوحًا.

دخل كالبرق إلى غرفته الموحشة، لكنه رغم ظلامها الدامس، فوجئ بضياء ساطع، أشقر، فتان.

لم يستغرب عندما وجد مارلين مونرو، مستلقية بكامل عريها كآلهة على فراشه، لم يضيع وقته ليتأكد هل أن ما يراه حلم أم حقيقة، امتد إلى جانبها وداعب لحمها الأبيض.

كانت البيوت والمحلات في الشارع نائمة، ماعدا المصابيح التي كانت تقوم بواجبها الليلي في إنارة ظلام الليل، في انتظار نهار جديد.

جنيف
9/1/2007
الساعة 7,45 صباحا



قصص برقية

سفينة نوح

حتى آخر لحظة اعتقد أن الأمر مجرد إشاعة، وأن هذه القلعة المطلة كنسرٍ مهيب على مدينة كركوك منذ قرون لا يمكن أن تُهدم، لم يصدق إلا بعد أن سمع بأذنيه قرقعة الجرافات، التي بدأت تقضم كوحش بلا قلب، ما أمامها من بيوت وأحياء.

كان شحوبًا أشبه بشحوب الموتى، باديًا على وجوه كل الذين كانوا يتابعون اغتيال القلعة وبيوتها، بعضهم كان لربما يبكي لرسائل حب قديم طمرتها الأنقاض تحت عاصفة من الغبار، أو لصور لطفولتهم وهم صغار يجلسون بهدوء في أحضان آبائهم متأملين العدسة بتفاؤل، أو لكتب وجدوا ذواتهم فيها.

كانت البيوت التي كانت شاهدة على أفراحهم وأتراحهم تتهاوى الواحدة بعد الأخرى، كانوا يعيشون نهارًا أصابه السعار.

وحده المجنون، كان يعد البيوت التي تتهدم، وكأنه ذاكرتها السرية:

- هذا بيت الحاج نعمان الذي مات العام الماضي.

- هذا بيت حسنية التي احترقت في الحمام.
- هذا بيت غازي الذي استشهد في الحرب.
- هذا بيت أبو جنكيز الذي أصيب بالعمى بعد وفاة زوجته.
- هذا بيت ميسون، جميلة جميلات القلعة.
- هذا بيت رامز أفندي، الذي ورثه عن أجداده، إنه أقدم البيوت، لربما أقدم من سفينة نوح.

لم يسأله أحد من الجمع المحتشد، عن العلاقة بين اغتيال بيت من بيوت القلعة وسفينة نوح، كانوا مكتفين بتأمل الطوفان!

الحزن يحلق عاليًا

نادته أمه من حوش الدار:

- إلى متى ستظل في السطح؟ اترك الحمام الآن وانزل قبل أن تصيبك رصاصة طائشة في هذا الزمن الأغبر؟

كان كعادته منغمسًا في التحليق مع طيوره، ناسيًا للحظات رائحة الموت الذي أصبح قاب قوسين أو أدنى من الجميع.

فجأة ألقى نفسه دون وعي على الأرض، بعد دوي انفجار مرعب، أعقبه صمت قاتل، عندما فتح عينيه بعد لحظات رويدًا رويدا، وجد حماماته في الأعالي، تكاد تلامس زرقة السماء.

كانت تلك آخر مرة يرى فيها حماماته التي اختارت أغصان أشجار في مكان مجهول وطنًا لها!

الشاعر

أنهى الشاعر قصيدته بعبارة:

في حفلة عزائي

أشرب قهوتي الأخيرة.

ارتشف رشفة من القهوة التي أمامه، ألقى نظرة حانية على الأسماك الملونة الصغيرة التي تدور وتسبح في نفس الحوض منذ سنوات، كانت تفتح أفواهها مثل أول يوم وضعها في الحوض، وتهرع بنفس اللهفة في كل مرة يلقي فيها بطعامها. أحس بالإشفاق على نفسه:
حتى هذه الأسماك ستموت في وطنها/ الحوض"
أنهى رسالته التي كتبها لأعز أصدقائه:
"لربما لن أعود إلى كركوك ثانية"
أقفل المظروف، ومج نفسًا عميقًا من سيجارته

ظل المظروف على مكتبه، وظل هو نائما قربه إلى الأبد، بعينين مفتوحتين، جامدتين.

لاجئون

لم يتحمل القارب الهرم ثقلهم، فكان أن لفظهم إلى قعر البحر، كانوا مجموعة من الرجال والنساء والأطفال، بدلاً من أن ينزلوا في جزيرة يونانية، انحدروا بهلع إلى قعر مملكة جديدة: مملكة الأسماك والحيتان والقواقع وطحالب البحر!

الأخرس

كان يعتقد أن اسمه، جواز سفر للموت الذي سيصطاده في شارع ما، لذلك كان يحرص على عدم البوح به، كسرّ دفين، أو كمفتاح مصدوء، ملقى تحت أطمار الأبنية التي حولتها الانفجارات إلى تراب، أكوام من الأنقاض.

قرب تمثال (المتنبي)، قطعت سيارة طريقه فجأة، نزل منها مسلحون، أحدهم سأله عن اسمه، المفتاح الذي قد يؤدي إلى تصفيته، أحدث الرجل المرعوب أصواتًا غريبة، وأومأ بإشارات كثيرة.

ضحك المسلح الملتحي:

- يا جماعة اتركوه، إنه أخرس!

ثم عاد إلى السيارة تسبقه قهقهاته المتتابعة.

الأعمى

المذيع يقرأ بيان القيادة بحماس منقطع النظير، بيان وقف إطلاق النار بين العراق وإيران بعد ثمان سنوات من الحرب المدمرة.

صفق كل السكارى الموجودين في البار بفرح حقيقي لنهاية حرب التهمت أحلامهم، وألغت وجودهم كبشر.

كان الأعمى الذي رُصت قناني البيرة أمامه أكثرهم حماسًا وتصفيقًا، بعد فتور حماسته صاح للنادل بأعلى صوته:

- سيد، سيد، رجاءً خذني للتواليت، أريد أن أبول!

الحفيدة

خرجت من المنزل متأنقة ومتعطرة، كذبت على جدتها:

- أنا ذاهبة كي أدرس مع سعاد!

عادت بعد ساعات بهدوء، دون أن تلاحظ جدتها، أن ثمة يد عابثة امتدت إلى شعر حفيدتها، ثم إلى صدرها، ثم إلى شفتيها، ثم تضاريس جسدها الغض.

لم تجد تفسيرًا للحيوية البادية عليها، والاحمرار الطاغي على وجنتيها، ضمتها إلى صدرها بحنان:

- ستكونين الأولى إن شاء الله هذا العام، لو درستِ كثيرًا كما فعلتِ اليوم!

قاص آخر زمن

جلس كعادته قبل انبلاج الفجر، أيقظ قلمه النائم من رقدته، بسط الورقة على مكتبه، بدأ قلمه يسوح فوقها، كان يريد أن يمسك بتلابيب قصته التي تأبى الاستلام له.

أسقط عبارات، لوثت بكارة الورقة:

– كان الرجل يتطلع من القطار بعينين مخمورتين على المناظر التي كانت تبدو أمامه كلقطات سريعة من فيلم فاشل.

أحس أن هذه الجملة لا تحرث الأرض الخصوبة في مخيلته، بدأ بعبارة جديدة:

– تأففت المرأة عندما قبلها زوجها، أف، عشرون عامًا وأنا أتحمل رائحة فمك الذي يفوح بالتبغ والخمر ! ابتعد عني، واترك لي حرية التقيؤ !

لا إنه ليس صورة الرجل في مخيلته، بدأ بعبارة جديدة:

– شنق الشاعر قصيدته، ثم شد حبلاً على السقف، بدا بعد أن أدخل رأسه في فراغ الحبل المعقود وكأنه يلبس ربطة عنق.

بدأ بعبارة جديدة:

- التقيا بعد سنوات حب جارف، تدخل خلالها الزمن الغادر بينهما كجدار برلين، أراد أن يشهد غرفة الفندق أول قبلة محمومة لهما بعد كل تلك السنوات، أشاحت بوجهها عنه راغبة/ممتنعة: لا تنس بأنني متزوجة!

شطب على هذه العبارة أيضًا، وبدأ بعناد بعبارة جديدة:

- كان يهوى عراك الديكة، وكان يثيره إلى أبعد الحدود الدماء التي تصبغ أعرافها بحمرة قانية.

في هذه اللحظة، خرج الرجل من الورقة صارخًا في وجه القاص:

"عليك اللعنة، منذ أيام وأنت تتقاذفني كالكرة يمنة ويسرة، كف عن تعذيبي رجاءً.

يا لك من قاص فاشل".

حوار

كانا يتشاجران، بينما كانت الدبابات الأمريكية تزمجر في الشارع.

- يا ابن الكلب!
- يا ابن العاهرة!
- اخرس وإلا مزقت فمك!
- عندما أكبر سأشتري كلاشينكوف، وسأخطف أختك أمام عينيك!
- عندما أكبر سأشتري قنبلة وافجر بيتكم!

كان المذيع يصرخ بحماس نبأ القبض على عشرة إرهابيين في عملية (النسر الأكبر).

وكان الشارع خائفًا ينتظر قدوم الليل بفارغ الصبر.

رفيقة النضال

وجدها فجأة أمامه. عبر الماضي من أمام عينيه كوميض من البرق، كانت قد شاخت مثله، لكن ظلال السنوات لم تستطع أن تمتد إلى عينيها الخضراوتين اللتين طالما باس رموشهما.

تحدثا عن الماضي، فلم يكن في الحاضر ما يستحق الحديث:

- هل تذكر كيف كانت هذه الشوارع تحمل قلقنا وخوفنا ونحن نلقي بالمنشورات هنا وهناك؟
- منشورات تتحدث عن النضال والحرية وهزيمة الأشرار.
- كان الحزب هو كل حياتنا.
- كنا نظن أن الحق المبين هو أفكارنا.
- كنا نحلم بأطفال سيولدون مبتسمين.
- وأن الشر سيلفظ أنفاسه على يد حزبنا المناضل، وأن.....

دوى انفجار عنيف ومرعب، هرع كل منهما مع الجموح الخائفة المنطلقة إلى كل الاتجاهات.

الحـرب

رددت الأم كل ما تحفظ من أدعية، وأسماء الأولياء وهي تقبل وجنتي صغيرها.

هبط السأم إلى قلبه الصغير، رفع رأسه محتجًا وهو ينظر إلى أمه متأففًا:

– ماما، أنا ذاهب للمدرسة، ولستُ ذاهبًا للحرب!

المتنبي

تجول (المتنبي) ليلاً في الشارع الذي يحمل اسمه في بغداد، انتابه الرعب من رائحة الدم وبقايا كتب ملطخة بالدم، ود أن يرتجل قصيدة عصماء في رثاء ضحايا الانفجار، والشارع الذي يذكر الناس به كل يوم.

أخفق في أن ينجز المهمة التي يجيدها أكثر من أي شيء آخر، فرت (الميمية) من ذاكرته، وانتحرت القوافي، وانطفأت الأضواء في الشارع، وولى المتنبي الأدبار، وفي قلبه ألف غصة.

حرامي

عاد خلسة إلى بيته الذي غادره قبل، حمته ظلمة الليل كأم حنون.

كان ضوء الشارع يلقي حفنة من النور على الصالون، مد يده إلى صورة أطفاله بفرح غامر وكأنه عثر على ثروة في قارعة الطريق.

عندما همّ بالخروج وهو يحمل الصورة من الباب الخارجي لبيته، ارتفعت أصوات مرعبة تطارده كالرصاص:

- الحقوا، حرامي، حرامي!
- إرهابي، في بيتنا إرهابي!

فرّ مثل طير مذعور من بيته، وهو يلعن نفسه الأمارة بالسوء، التي زينت له العودة في العتمة إلى منزله الذي أرغم على مغادرته قبل أيام مضطرًا، بعد التهديد الذي تلقاه من قبل إحدى الجماعات.

رسالة من امرأة مجهولة

عزيزي..

حينما يحل الظلام ينتابني الرعب، فأشعل مصابيح جميع الغرف حتى الصباح، مع ذلك أتمنى أن ينقضي النهار ليعود الليل ثانية بوجهه الكالح وصوت خطواته المرعبة.

لقد أخذوا زوجي وهو الآن نزيل مستشفى الأمراض العقلية، بعد أن بدأ يقول لكل من يصادفه نهارا: مساء الخير!، ولكل من يصادفه مساء: صباح الخير!

ظل يكرر هاتين العبارتين مئات المرات يوميًا، لم يعد يتحدث بقاموس اللغة التي نسيها بل ظلت هاتين العبارتين في عقله.

وحدي استلقي على السرير، وحدي أنام، وحدي أتناول الطعام، وحدي استحم، عندما أتطلع إلى وجهي في المرآة، تتأملني في نفس اللحظة عشرات الوجوه و مئات العيون، هي جميعها وجهي أنا، وعيوني أنا.

أرى من النافذة صبيًا حافي القدمين، يطارد صبية شعثاء صارخًا وراءها:

- قحبة، قحبة!

أصرخ من النافذة بدوري:

- قحبة، قحبة!

لا أدري على من أطلق هذه الشتيمة، هل أقولها للحياة، أم لأناس لا أعرفهم، أم للعيون التي لا تراني؟

يتوقف الصبي على صوتي، يرفع عينيه إلى نوافذ البيوت، يعود بعد لحظات مواصلاً الجري، دون أن يراني، يطارده صوت رجل غاضب:

- يا لك من صبي وقح، يا لك من صبي قليل الأدب!

10/3/2007



قصة ميت

(إلى الشاعر الصديق وديع العبيدي)

كان ممددًا على سريره مثل أي ميت توقفت الحياة في شرايينه، لم يكن يسيرًا على أهل الحي أن يقتنعوا أن الجثة الهامدة أمامهم هي جثة عادل، الذي طالما عرف باندفاعه نحو كل شيء ينبض بالحياة.

نظر إليه الجزار مرتضى، بعد أن قرأ الفاتحة، قال لمن حوله:

- رحمه الله، كان يحرص على شراء أفضل أنواع اللحوم، ولم يكن يهمه السعر مثل زبائن آخر زمان هذه الأيام، الذين يساومون من أجل علة دراهم، كان سخيًا رحمه الله، لم ينس في يوم ما أن ينفح ابني الذي يعاونني في الدكان ببعض النقود في كل مرة كان يشتري فيها اللحم، لم أصدق ما جرى له، قدر؛ إنه القدر، ماذا نستطيع أكثر من أن نقول: ما دايم إلا وجه الله.

سعل الحاج زكريا وهو ينفث مع نوبة السعال جزءًا من الدخان الذي انحبس في بلعومه، متأملاً المحيطين بالجثة من جيران الحي الذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة.

ـ ألححت عليه أن يحج معي في آخر زيارة لي إلى بيت الله الحرام، لكنه رد علي كما كان يرد في كل مرة افتح معه الموضوع: لا أزال شابًا يا

أخي ولم تخفت في داخلي جذوة الحياة، أتمنى لك حجًا مبرورًا، سأكون أول من يستقبلك. كان رجلاً طيبا رحمه الله، كان سيكون خيرًا له أن يكون قد حج قبل وفاته، لكنها الآجال ولا تعلم نفس بأي أرض تموت غدًا.

نظر محمود عبد الله، وكأنه يتأكد من موعد ما، زفر حزنًا على الميت، وبعد أن دعا الآخرين إلى قراءة الفاتحة عليه قال:

- يا جماعة إكرام الميت دفنه، يجب عدم الانتظار.

كان يحب النهايات السعيدة في الأفلام التي يشاهدها والروايات التي كان ينكب على قراءتها كلما سنحت له الفرصة، كان يحب أن يقول للآخرين ما يودون أن يسمعونه منه، فإذا ألح عليه الحاج زكريا بإلحاح أن الدنيا فانية ويجب أن يعمل المرء لأخرته ويلح عليه بالحج، كان يقابله بابتسامته المعهودة قائلا:

- الحياة طويلة ولكل شيء أوان، لا بد أن يحدث ذلك في يوم ما.

وعندما كان الجزار مرتضى يشكو له من تصرفات بعض زبائنه، كان يرد عليه قائلا:

- الناس معادن يا أخي، تجمل بالصبر، فالصبر جميل كما يقال.

ثم يستدرك ضاحكًا:

- أما لماذا الصبر جميل فوالله لا أعلم.

فيروح الاثنان في ضحك صاخب.

عندما كانت جارته التي اعتادت أن تحدثه بصراحتها المطلقة التي تشتهر بها في الحي، وتقول له، إنها وزوجها أصبحا مثل شقيقين في الفراش، لم يكن يتردد من أن يقول لها:

- اكشفي له عن كنوزك، سترين كيف سينقلب إلى أسد مفترس فلا شيء يثير الرجل أكثر من المساحات المكشوفة عن ساقي وصدر المرأة!

كانت أم فاتن تكتفي بالضحك وهي تنظر في عينيه متأملة منه أن يواصل حديثه الذي كان يروق لها ويثيرها.

كان زوجها مخبرًا في الأمن، ورغم أنه حتى الطير الطائر في الحي كان يعرف حقيقة مهنته إلا أنه كان يتصور في قرارة نفسه أنه غير مكشوف، وكان يقول عن عادل لزوجته:

- حرام، لا يزال شابًا، الحق إنني لم أر منه ما يشينه خلقًا وأدبًا، وكان من الممكن أن يظل محتفظًا بسجاياه لولا مرافقته أحيانًا لبعض المشبوهين، وتناوله الخمر معهم في النادي.

قال الشارع الممتد من حي (عرفة) إلى الشارع الذي تقع عليه (ثانوية المصلى للبنين):
لقد ظل يحلم ويكتب، يكتب ويحلم، لم يصبح كاتبًا معروفًا، لكنه كان سعيدًا بما يكتب.

كان ينطلق بدراجته العتيقة كل صباح إلى مدرسته، لم يكن يحب المدرسة كثيرًا، يوم خلاصه من قيود الدراسة وعقالها، خاطب زملائه غير مصدق، هل حقًا انتهى زمن الكابوس؟ هل ستختفي من حياتي اللوغاريتمات وفيثاغورس إلى الأبد؟ مرحبا بالسَّياب، مرحبا بغداد، أنا قادم.

تهامست دور السينما في المدينة وهمهمت:
لكم قضى ساعات ممتعة في ظلام دورنا، يعيش لحظات متلهفة لوجوه جميلات السينما، وكأنهن حبيباته، ثم يمضي بهدوء مستعيدًا المشاهد التي انطبعت في ذاكرته مرات ومرات، حاول أن يكون مثل محمود ياسين مع حبيبته إلا أنه عدل عن ذلك لأنه كان جادًا أكثر مما يتحمله، ولا يمكنه أن يعبر عن العواصف التي تجتاح كيانه، وتقلع خيام المنطق من أعماقه، مفضلاً أن يعيش لحظاته المختلسة معها، والتي كانت تتوج بقبلات شهوانية ساخنة، مفضلاً أن يعيش تلك السويعة كما يريد هو،

لا كمال الشناوي ولا محمود ياسين، طز فيهم جميعا (وطز كلمة تعلمها من الأفلام المصرية ومن رواية القاهرة الجديدة لنجيب محفوظ بالذات)

كان يهوى كتابة الرسائل إلى حبيبته، رسائل يضع فيها حرائقه، لكم كان يتذمر عندما كان جوابها يأتيه مستنسخًا من كتاب (رسائل أشهر العشاق)، عندما كان يلومها، كانت تبتسم وهي تمنح بدلال فمها إلى فمه الظمآن هامسة: إليك جواب رسالتك، أليس ذلك أفضل من كل الكلمات البراقة؟

كان متواضعًا في كل شيء، في هندامه، في طموحاته وأحلامه، لم يخطط أبدًا لتحقيق أي شيء، كان مثل خشبة عائمة في نهر الحياة، يقوده النهر إلى المكان الذي يشاءه، وظل هو راضيًا وقانعًا بالمكان الذي أوصله إليه النهر.

قالت شجرة توت معمرة في (عرفة) لمياه الساقية الرقراقة التي تمر من مدخل الحي:
كان صبيًا هادئًا، يرافق بهدوء الصبية الأشرار الذين كانوا يحتفظون بروح عدوانية فظة على أسماك الساقية الوديعة، على القطط والكلاب التي كانت تفر مذعورة من أمامهم بمجرد رؤيتها لهم وهم يقذفونها بالحجارة وسط ضحكات صاخبة، حتى العصافير الجاثمة على أغصان

الأشجار لم تكن تسلم من شرورهم، كانوا يصطادونها بشراسة، وبمجرد سقوطها على الأرض كانوا يبادرون إلى قطع رؤوسها ثم يهرعون إلى بيوتهم لشيها، ويخرجون من بيوتهم ليتناولونها بنهم أمام أصدقائهم.

مرة شاهد عصفورًا صغيرًا على عريشة العنب التي كانت تظلل حوش دارهم، فرماه بقطعة معدنية من فئة المئة فلس، ولدهشته فقد أصابت العصفور المسكين الذي وقع من غصن العريشة، هرع نحوه مقتربًا منه وهو يحس بمشاعر ندم لاهبة، أمسك بالعصفور وأراد أن يفصل رأسه الصغير الأليف من جسده كما يفعل زملاءه الأشرار، إلا أن أصابعه خذلته، أصيبت بالشلل وقتها، كان قلب العصفور الصغير يخفق بقوة، لم يجد نفسه إلاوهو يمسد رأس العصفور المذعور ويقذف به إلى السماء وكانت فرحته غامرة بعودة العصفور إلى أحضان الفضاء الفسيح.

قال شارع (أطلس) لأرصفته:

كنت أراه يدخل بهدوء إلى سينما أطلس، لم أكن مهتمًا به، لكنه انطبع في ذاكرتي بعد إضراب المدينة ومواجهته الشجاعة للشرطة، لم يكن ذلك الحالم الغارق في المثاليات ولغة العواطف، وألف باء الأحاسيس، يومها سقط بعد عدة ضربات من هراوات الشرطة.

قال مقعده للمائدة في نادي الفنانين بالمدينة:
كان لا يتناول الطعام بعد تناول الخمر في نهاية السهرة كما جرت العادة، بل يفضل أن يحتفظ بسحرها في معدته، ليظل منتشيًا يحلم بحبيبته أطول مدة ممكنة، وكانت روحه تنطلق إلى سماء كركوك المحتضنة حمرة نيران (بابا كركر)، بعد أن ترتفع أصوات بعض المغنين السكارى بالغناء، في تلك اللحظات كان يتمنى أن لا تنتهي تلك الليلة، وأن تستمر لساعات وساعات، فالأرواح كانت تنطلق من قيودها ومن قانون العيب، لكن مثل كل شيء، كانت تلك الساعات تنقضي رويدًا رويدا، وتذهب إلى حال سبيلها، فيضطر ليعود إلى البيت آسفًا، وعلى شفتيه أصداء من تلك الأغاني النشوانة من السكر، فيخرج وكأنه طريد الفردوس، بعد أن تقف سيارة أجرة يقبل سائقها أن ينقل مخمورًا إلى بيته في ساعات الفجر الأولى.

قالت مقبرة بابا فتحي:
أخيرًا عاد، كنت أراه يزور وحيدًا قبر والديه في بعض المناسبات، كان يغمغم بجمل طويلة، لم أكن أعلم هل يفضي إليهما بحديث سري أم يترحم عليهما.
في إحدى المرات حضر إلى المقبرة مع قريب له، الذي قال له مؤشرًا بإصبعه إلى القبور:

- هنا سينتهي كل شيء

أتذكر بأنه رد عليه بلامبالاة قائلاً:

- فيما بعد وليس الآن، لا يزال ثمة وقت طويل، ليس قبل أن أتزوج حبيبتي، وأطبع كتبي، وأرزق بدستة من الصبيان والبنات، عندئذ ليأت هازم اللذات ومفرق الجماعات.

خرج بعد أن أطلق ضحكة مجلجلة تجاه القبور، هاهو الآن يعود ليرقد بهدوء بين والديه.

قال قبر والده لقبر والدته:

ها قد عاد ولدنا، ليرقد إلى جانبنا.

بكت الأم في قبرها:

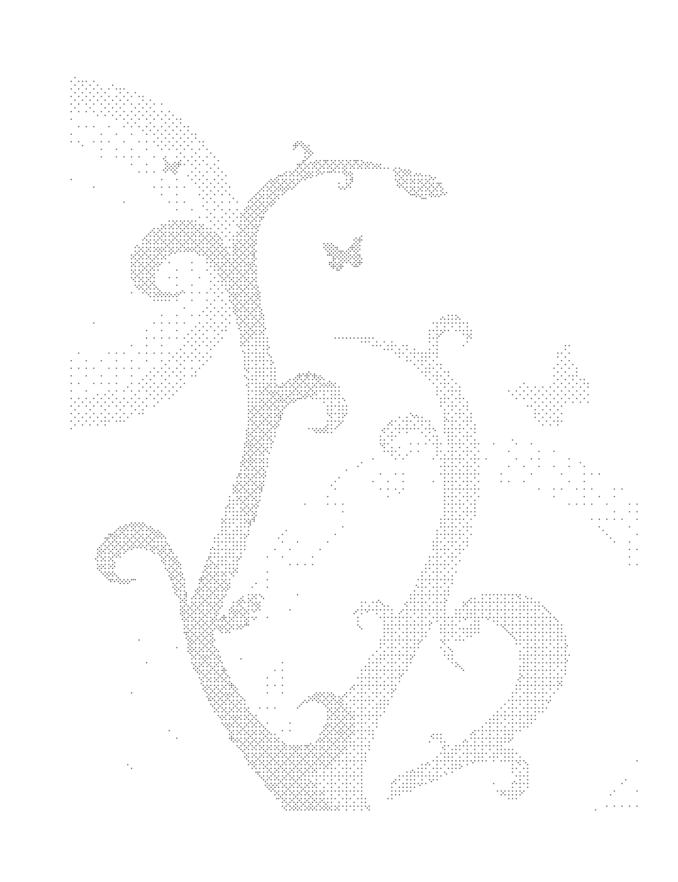
- حرام، حرام، إنه لا يزال صغيرًا، لقد ولد في حرب رشيد عالي الكيلاني!

10/7/2007

السادسة والربع صباحا

• عرفة ومصلى من أحياء كركوك.

• يطلق العامة التركمان على حركة رشيد عالي الكيلاني في ١٩٤١ اسم (حرب رشيد عالي ـ رشيد عالي حربي).





نصرت مردان

- أديب ومترجم عراقي مقيم في سويسرا
- الإصدارات :

- عمت صباحًا أيها المساء : قصص. بغداد، ١٩٨٦
- مطعم القردة الحية : مسرحية للكاتب التركي غونكور ديلمن (ترجمة). وزارة الإعلام، الكويت ١٩٨٩
- روايتا (الصحيفة) و(لو يقتلون الثعبان)، للروائي التركي يشار كمال (ترجمة). دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٠
- رواية (محمد الفاتح) للروائي التركي نديم غورسيل (ترجمة)، منشورات الجمل، ألمانيا ٢٠٠١
- حانة الأحلام السعيدة : قصص، منشورات ضفاف، النمسا، ٢٠٠٣

- البريد الإلكتروني: **nasrat.mardan@bluewin.ch**

فهرس


شمس
للنشر والتوزيع
(+٢) ٠١٨٨٨٠٠٦٥ (+٢) ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤
www.shams-group.net